الدكتور عبد السلام المسدّي

فتنة الكلمات

Bibliotheca Alexandrina
0011735

نشر وتوزيع
مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله ـ تونس

عبد السّلام المسدّي

فتنة الكلمات

مؤسسات عبد الكريم بن عبد الله للنشر والتوزيع - تونس

إلَى اللُّغَـــةِ الَّـــتِي سَمَّيْتُهَا لُـغَتِـــــي

وكَـــــانَتْ تَعْـرِفُ أنَّـهَـــا لُـغَتِـــــي

وَقُـلْـتُ عَنْهَـــا إنَّهَـــا لُـــغَـتِـــي

وَهْـيَ الَّتِي تَـقُولُ الْـيَـوْمَ إنَّـهَـا لُـغَتِـــي

رِسَالَـــــةٌ

أيّتها اللّغةُ .

سأكونُ رفيقا بكِ لأني رفيقٌ بنفسي .

لن أُفشِـيَ من أسرارِكِ إلا جميلَ أسرارِكِ .

لن أصِفَ ازدواجَكِ بين حقيقةٍ و مجازٍ .

سأقول المجازَ .

وسأسكتُ عن الحقيقةِ .

ففي الحقيقةِ أسرارٌ .

و لن أفتحَ ديوانَ الأسرارِ .

فسرّكِ سرّي .

و أنا الـمُـصَابُ بكِ يـومَ حَـلَّ بنا وَبَاءُ الحرفِ . يومَ الْـتَـهَـمَـتْـنَا الكلماتُ .

فالحمدُ للهِ أن أنْجَـانَا ـ أنا و أنتِ ـ من الطّاعونِ .

To: www.al-mostafa.com

أيّتُهَا الْكَلِمَاتُ

جائني هاتفٌ من أقاصي الفجر فأنْطَقَني بقولٍ و أوصاني أن أقْرِئَكِ إيّاه :

سأقُصّ عليكِ قصّتي بما لم تعلميه من قصّتي . و سأقصّ عليكِ فيها ما لم يَعْلمه قبلكِ عالم . وسأقْضي ستّةَ أيام أقصّ فيها عليكِ صباحَ مساءَ لا أنقطع عن القَصّ إلا ساعةَ الليل . و بعدها سيكون كلامٌ . و ستكون نشأةٌ أخرى . و سيكون ما لم يكن .

فَـاتِـحَـةٌ

في البدءِ كان الصّمتُ . و قبل الصمتِ الخـلاءُ . فَـلِمَ الكـــلامُ . و كم من لفظــة قَتَلَتْ . و كم من سكتـة أنـقَـــذَتْ . و أصحاب اللسان يتكلمونَ فينـدمونَ . و أصحـابُ الـعَيِّ يَـحْلُمُونَ بليلة القـدر عسى أن يُوهَبُـوا كلماتٍ بيّنات .

و الأزهارُ تتنـاجى . و النّملُ يتحـدث فيُفشي الأسرارَ . والأبْكَمُ حَاسِدٌ و محسودٌ . يَعرف أنه يحُبّ و يَعْشَـقُ . و لا نـدري كيف يـحبّ و يَعشق . و يَعرف أننا نتكلم . و هو على يقين أنّنا لا نعـرف كيف نُحـبّ ولا كيف نَعشق .

و العُشـاقُ درجاتٌ . و العشـقُ مقـاماتٌ . و الوفـاءُ مراتبُ . و أقربُ العاشقينَ إلى عرش السّماءِ مَنْ عَشِقَ اللّغةَ . و أولاهم بجنّة الخلد من عَشق حتى فَنِيَ وحَلّ في اللغة حُلولا . فاتّحدتْ به . واتّحدَ بهـا .

إشَـــارَةٌ

أيّتها اللّغةُ . أيا فُصْحَايَ . يا شاعرتي .

عندما التقينا . و دقّتْ أجراسُ السماءِ . بأنك قَدَري . كان اللّحَافُ يغطّي أشعاركِ . و البُـرْقُـعُ يَسْتُـرُ وَجَنَاتكِ . أحْـبَبْتُك كما أنتِ . ثم جئتِـني إلى حيث أنا . وسألتني خلعَ النّقـابِ . و خلعته . فأحببتُ عُرْيَ الكلماتِ . و انكشـافَ الحروفِ . و فصـاحـةَ الحركـاتِ . ثم غـابت الأسبابُ . و انقطع البيانُ . و ساد الغموضُ . حتى رجعتِ تبحثين عن تأويلِ الكلامِ . ارتفع الحجابُ . و انكشفت الأشعـارُ . وتعرَّى الجـيدُ . و بَانَ الهلالُ وضّـاحا مُـشْـرقا . و قلتِ . أيا نـاطقي . حلّتْ بالكلمات حساسيّةٌ فَاضَتْ بها جلدتي . فجلَوتُ بعضَ الحروف . ووضعتُ عليها حركاتـها . دَقّ النذيرُ في خاطـري : هل زالَ البرقعُ أم ضاقَ اللّحـافُ . نـظرتُ في عينيـكِ . فأحسستُ بهمسـةٍ تقـول : توارَت الحقيقـةُ . و ظهر المجازُ . فسَقط القناعُ .

حَسِبْـتُكِ لُغَتِي . لسـاني و جنانـي . فما كنتِ إلا لهجتي . و لا يعرفِ الضادَ غيري . كـلّ اللّغاتِ سَـوَاسِيَهْ .

بَيَـــانٌ

أيّتها اللغة : أراكِ أمامي نصّا . و أراكِ قصيدة . فأتذكّر الحسناءَ أتقصّى جمالها . فأدركُهُ و أدركُها . و لا شيء يفرّق بينها في ناظري و بين جمالها . و أتأمّل شأنَكِ فيأخُذُني الضّلالُ ووجهي حائلٌ . مَنْ أنتِ وَ فِيمَ جَمَالُكِ .

النّصّ تَعَاقُبٌ و استتباعٌ . تتوالى أجزاؤه كتوالي دقّات الساعة على الجدار . و القصيدة تَدَرّجٌ و استكمالٌ . ينثني فيها الوقعُ على الوقع كانثناء أنّاتِ القلبِ . و يتراوح بين مفاصلها نبضٌ كتوالي خَفَقَاتِ الدَّمِ و هي تمور بين ضخّ و امتصاص .

إذا تعلّقتُ بجمال الكائنات رأيتُ فيه بعضًا من نفسي . ثم إذا تأمّلتُه رأيتُه صورةً كاملةً ممّا في نفسي . أهيمُ بالكائن الجميل لأنني أتوسّل به إلى نفسي . فَأهيمُ به على قدر هيامي بنفسي .

أمّا أنتِ أيّتها اللغةُ فأجزاؤُكِ صنيعتي . أراكِ منّي فأعْجَبُ مما صنعتُ بِكِ . عَجَبي أنيّ أقتنصُ أسرارَكِ . و أنيّ بأسرارِكِ أقتنصُ النّاسَ . فأجرّهم إلى مملكتكِ . فلا أبالي أنْ نَسُوا أنيّ المستضيفُ لهم

عندك . وَأسْعَدُ . أنْ تركوني وهاموا بك . كذا شأني مَعَك . و على غير شأنك شأني مع الحسناء لا يُميتُ سُوَيْدَاءَ غَيْرَتِي قاتلٌ . فهل أنت خادعتي . أم أنا السّيّدُ . أم تُراني كَمَلَكٍ اعْتَصَمَتْ به سبيئةٌ فَأجَارَهَا صُبْحًا ولَمْ يُمْسِ إلا و هو أسيرها .

جَمالُنا إذا أقر لنا الناس به . فَأسْلَمُوا إليه أنفسَهم . و جمال اللغة من إيمانهم أنَّ لنا عليهم سلطانا . و أن طريقنا إليهم فيه طريقُ اللغة . بها نَنْفَذُ إلى خَلَجَاتِ قلوبهم . و بها نستولي على مَرَاكِنِ عقولهم . و بها نروح عليهم و نغدو .

جمالُ الكائناتِ كلّ إذا جَزَّأتَهُ أفسدتَ على نفسكَ ما كنتَ مطمئنا إليه . و عكَّرتَ صفوَ اللّذة التي كنتَ تَرتشفُ . و جمالُ اللغة كلّما جُسْتَ بين أجزائه ازددتَ بالكلِّ افتتانًا . و ازددتَ للصّورة التّامّة إجلالا .

أيتها اللّغةُ :

هل تَأذَنينَ بإفشاءِ سرٍّ من أسرارك .

يوما ركّبْتُ بك قولاً . فانساقَ لِيَ الطّيْشُ بالألفاظ . فَلَم أدْرِ ما كنت أعْنيه . وَأمْعَنْتُ . فَتَزَيّنَتْ صورةٌ . لم أفهمْ لها معنًى . رَدّدْتُ القولَ فاستطبتهُ وعاودتُ . فانثالَ فيضٌ من الدّلالات . وَأشَعْتُ فَقَبِلُوا . و استراحوا . ثم سَلكوا في النّشوة كلّ مسلك . فَأغرانِي

عَبَـثُ الولـيد . فظـلّتْ معـي زمـنًا . و أردتُ تـوبةً . و استغفرتُ لديك . وَهمَـمْتُ أنْ أعْـلِـنُ الذّنبَ . وأنْ أصّعّـدَ على منبر الاعتراف . أطـهّرُ النفسَ من أعـلاقها . وأغْـسِلُ بالبوحِ إثما ظلمتُك بـه . و أنا بين عزمٍ وانثناء سمعتُك و سمعتُ مَن حَـوْلَـك تُـهاتـفـينَ ، و يهاتفون :

ليس مِن عبثٍ ما صَنعتَ . إنما العبثُ مـا سَتَـصْنَـعُ . فلا تُكَـابِرْ . فلقد نَطَقَتْ على لسانكَ اللغةُ . أرْسَـلَتْ إليكَ واحدًا من جنودها . وَهُمْ نَـفَرٌ من الجِنّ قالـوا آمَـنّا . فهاهم بِمُلحِدِين . فلا تَسْتَعِـذْ باللّهِ من طيفٍ ألَـمّ بِكَ .

و من يومها . تَـزَيَّـنَـتْ لِـي فتنةُ الكلمات .

خِطَـــابٌ

إليكَ أيا سيّـدي أنا أتحدّثُ . إليك أزُفّ اللّفظَ عريسا مُـخَـضَّـبًا .
إليكَ أنا أتـحدّثُ . حاضراً . أتحدّثُ . غـائبًا . أتحدّثُ . الكـونُ ملءُ
يَدِي . أتحدّث . أوقفتُ يوما ناظري . و أمسكتُ عن الحديث . و أعلنتُ
عن حفلتـي . و مـراسمي . أستقبـلُ النـاسَ لـو لائمـي . و أشعلتُ
الشمـوعَ . و أوقـدتُ العطـورَ . ورأيتُـني أتحدّثُ . إليكَ أيـا سيّـدي أنـا
أتحدّثُ . حاضرا أتحدّث . غائبا أتـحدّث . أفـتَـرِشُ الـزّرَابِيَ . والموائدَ .
وأرُشّ رذّاذَ الفـوائِحِ . أتحدّثُ . وأدُقّ على الجَرَسِ القويّ . مُـؤَذّنًـا . أنَّ
الضيوفَ . كـالقادمينَ . يتـزيّنُونَ . ويُفاتـحُونَ . مُهلّلِينَ . يبـاركونَ .
جـاؤوا إلى حفـلـةِ الإقبـالِ . جـاؤوا و في يَـدِهِمْ . كهـديّـة الأعـيادِ .
فيـضٌ مـن الأزهـارِ . و تسـاءلـوا . أينَ الأنيسُ . و أينَ لحنُ
غنائنـا . وتقدّمتُ الخُطَى . متهـاديًا . أتحـدّثُ . وَيَـدي تُصَافِحُ . والأذنُ
تَـهْمِـسُ . و الشّفاهُ على الصّدَى . و اللّحنُ سكرانَ يُغَنّـي . وأنا الذي .
إليكَ . أيـا سيّـدي . أتحدثُ . و القـادمـونَ تكاثـروا . و الشـاهـدونَ على
الأرائكِ . أتحدّثُ . و طـاف بالجمعِ السكـونُ . و خرج النّـادل . فَفَكَكْتُ

من يَـدِه الأطبـاقَ . و قلت . أنا أتقَـدَّمُ. ورأيتُني . أتحدّثُ . فـوزّعتُ العقـــودَ. و أسدلتُ الفواكِـــهَ . و صِحْتُ بالـواقفينَ. دونكم أتحدّث. فتخالطوا. وتهامسوا. وقال قائلهم. هي ليلتُهُ التي. عن فجرها يتحدثُ. عن نـورهـا. يتحـدّث . هاذي ليلتُـهُ التي . نحنُ الشهـودُ . و عقـدهـا يتـواتَرُ. لا تَـنْثُرُوه . وجُـمَـانُـهُ المصقـولُ. كمُـرجانِ بحـرٍ. لُؤْلُـؤُهُ الـمَحَارُ. و فيضُهُ لا يَنْضُبُ . فتنـاغموا. و تهللوا . و سمعتُني أتحدث. حتى إذا طـاف بالأُلـقِ النّهَـى . جـاء المَـلاَكُ. و انتشر البيـاض. و سَطع النور. ووجدتُني أتحدث. وامتدّت الأيدي . وتهاطلت الأكُفّ. وقلتُ. أنا أتحدّث. إليـكَ أيا سيّدي أنـا أتحـدّث. وأسلمت النّفـوسُ رحيقَهـا. و طـافَ بـالكـون الخلـودُ . وتشقّقتْ فـوقي السّماءُ. و اصّعّـدَتْ نحـو المعارج. في ليلتي أتحـدث ووجدتُني. كَمَنْ هَـفَا. وَلطَيْـفه. يتحدّث. ووجـدتُنـي. بيـن الخـلائلِ. أسْـترِقُ الوَفـاءْ. وأنْـسَلّ. و القلبُ واجـف ووجدتُني. أتذكّـرُ. طولَ الخُطَى. عَـرْضَ الفُؤَادِ. إليكَ. أيا سيّدي . أتحدّثُ.

صَـــوْتٌ

هل تَـذْكُـرُ يا هـذا. مـا أنتَ إلا يتيمُ العقل . شقيّ بحسّــه. هَــلاَّ ذَكَـرْتَ يـومَ كـان أوّلُ مواعيـدِ الأنسِ . سـاعـةَ طَـفَحَ البريقُ في هـدوء السّاكنينَ. فقالت. ألاَ تـرَانَا قـد سَـوَّيْـنَـا لأنفسنا صـُوَرًا تُفـارِق الحـسَّ و تتوسـّلُ بالسماءِ. ألا تَذكر كيف اعْتَصَـرَ كـلامُها في نفسـكَ رحيقـــا. و انقبض قلبُك انقباضةً. ولم تُـخْفِ عليها شيئا . قلتَ. الومضةُ حارقةٌ. والحسُّ شفّافٌ. و النّباهـةُ من الشّيطانِ . فكيف جاءتـكِ و لم تجثني . أمِ اسْترقتِ سمعا. و قبضتِ قبضةً مِنْ أثَـرِ .

ومازال الكـلامُ بكَ. و مازلتَ به. ولم ينفكَّ الشك يرتـادُك . حتى كـانَ الذي كـانَ. في آخرمـاكانَ. فأيقنتَ أنها قـد سُوِّيَتْ روحـا من غير أرواح الكائنينَ.

أيتها اللّغـةُ . منكِ الشّعـرُ . وأنـا صائـغُـكِ .

فَـلْـنكْـتُبْ .

أيّتهـا اللّغــةُ. لا أقْـــدِرُ أنْ أراكِ على غيرِ مـا كنتُ أراكِ عليـه. لا أقدِرُ. لاأقدِرُ.

و من أقاصي المفازات. حيث أذنَ للّغة أن تَتَخَلَّقَ في تجاعيد التّربة الصّفراء جاءني رسولُها. فَتَمَثَّلَ لي جِنّيّةً تقول الشعرَ. و تُلْهمني أن أقولَ الشعرَ. فتقاضينا. وتلونا تسابيحَ اللفظ. ولم تنفكَّ تُراوِدُني على قوله. و أنا كَالْحَرُون. وكان الإذعانُ أشقّ عليَّ من قَلْعِ الأضراس الحيّة. حتّى ارتاض بيَ الألمُ. فَنِمْتُ.

ثم تمايلتُ نَملاً على السرّير. و الفضاءُ من حولي فسيحٌ بظُلمة أحبّها. تمايلتُ. وألقَيْتُ بذراعي. وكانت مسافةٌ تَفْصِلُني. فَمَدَّدْتُ. و تحسّستُ. و استنشقتُ أعلَ الكَتِف. و كان بلا غطاءٍ فغطّيتُهُ. و قفلتُ نائما. وَدَبَّ نداءٌ. فكتمتُ صوتَهُ. وتسلّلتُ إلى فضاءِ الظلمة. تاركًا ما تركتُ. الرُّبى منتفضةٌ. و اللّون ساطعٌ. السَّنَمُ على الرّبى يتشامخ زهوا بحمرة تكاد تتكلّم. رمالٌ ذهبيّة تتجاعد. ولاتَقَرُّ على موج. مَدُّهَا إلى الهضاب. و ارتدادُها إلى النهر يفورُ. و بينهما رحلةٌ تَشُدُّ الأنفاسَ. كأنفاسِ غَوّاصٍ إلى أعماق اللآلىء إذا أطال الصّبرَ تَنامَى مَحارُهُ. و اشتدّتْ دانتُه. و قالت. دُوني مَشارفُ الغَرَق.

و تحرّكَ النائمُ. حالمًا. انفضّتْ سدائلُهُ. يحُرّكُ الخمائلَ من عَلَى الأكتاف. و الجيدُ كأنه يَقْفِزُ. مُلاعِبًا مَنْ يَرْقُبُ. و تَسَلَّلَتْ أصابعُهُ و هي نائمةٌ إلى مَفْرَقِ الجبينِ. وسَرَّحَتِ الأشعارَ. ثم قَذَفَتْ بها

على البساطِ. و ابتسمتْ. فأيقظَها ابتسامُها. يقظةً استدارت بها الكتفُ. و ارتختْ الأطرافُ. كأنها الشمس بازغة. والجسدُ الجِنّيُّ كالعاري. يَستقي شعاعَها على رملٍ فضّيٍّ. ثم اعتدلت الهضابُ. و أومأتْ تلألُها. و انفسح الموجُ. و اقتربت المسافاتُ. و استوت الأطرافُ ذاتَ اليمينِ تتكاسل في رفقٍ يتأذّى به فاقد الصّبرِ. وغَمَزت الجنّيّة وكأنها اللغةُ. ومَدَّتْ. فظننتُها قادمةً. فعرّجتُ على الجانب الأيمن. فحاضنتُها. ومَدَدْتُ إطلالةً. و قاربتْ أنفاسي ساطع الأنوارِ. فشممتُ وَهَجًا خلتُهُ الكبريتَ يَصّاعَدُ مدفوعا بِشَذاَ الإصباحِ.

عُدْتُ أرَافِقُ. فانتدى مَا اشْتَدَّ. ولان اللحظُ حتى رَقَّ فارتخى الزّهو. وهَتف المَيْلُ. و خِلْتُ أني أقول الشعرَ. وراحت أصابعي تَرْسُمُ الحروفَ. تُمرّرُ الأناملَ على ما انكشف من الكلمات. فكأنها بكل لمسةٍ تتفوّهُ. و بكلّ رعشةٍ تَنْبُسُ بأوتارِ صوتٍ بليغٍ يُفْصح بلا مجازٍ.

وزاغت اللغة. وأنْشَدَ النّهرُ خريرَ الألحانِ. تسمع الصوتَ ولا تراها.

و تَمايلَ القدُّ على البساط تقول إنه يَمشي الخُطَى و لا يتحرك.

و ظننتُ أنّ ما باللغة بي .

فأضرمتُ الهشيمَ . وفاح لَهيبُهُ .

وقلتُ . صَنَعْتُهَا .

فانْتَفَضَتِ الكلماتُ . وَارْتَدَتْ . و خرجتْ هاربةً . ثم انفلتَتْ كأنّها السّهمُ و هي تقول إني أثأرُ .

فلم أجبْ .

و لكني أفَقْتُ .

فلم أجِدْ شِعْرًا .

نَغَـــمٌ

أيتها الفصحى .

مَـن شَـقَّ هضابَـك . و تسلّق جبالَـك .

من ألان صخرك . وَثَـقَّـفَ أشجارَك .

من فَـجَّـرَ عيونَـك . وَأسالَ أنهارَك . وسَـوَّى بهجتَـك .

من أغراكِ بنفسِـــكِ فأخـذكِ التَّـيْـهُ حتى عُـدْتِ إليه تشتكين لَحنَ العابثينَ .

قالت :

ليس في الكون مخلوقٌ إذا ادّخرتَهُ ذَوَى . و إذا أخذتَ منه زكَا . و إذا مَضَى عليه الْـحَـدَثَـان نَـمَـا . و إذا أفْـنَـيْـتَـهُ انْـبَعَثَ .

إلاّ أنَـا .

أنَـا اللّغة .

قال . فلن تَـخْـرُجي و إن قَضَيْـتِ عمـرًا وعمرًا عن فَلَكِي . يا مَـنْ دخلتِ حـرّةً إلى فَـلَكِي . طـائـعـةً سائـغـةً لن تَـخـرُجي .

قالت :

إليكَ أسْلَمْتُ نَفْسي . يامن أخْصَبْـتَنِي بأجِنَّـةِ المعانـــي . يا مَـن

حَمَّلْتَنِي من الدّلالاتِ ما لم أحْمِلْ .

أيتها الضَّـــادُ.

بضفائرِ حرفك تُكَابرينَ. و بنثائر لفظك تَتأبَّهينَ . أخال أنني أصنعُك. فَتَلْفِّينَ حَرُونًا. و على شفاهك ابتسامةٌ من بَنَات حَوَّاءَ. أخذتها تُحَاكينَ بها الآدميّينَ. وأنتِ الرُّوحُ لم تَرْكَبي جَسَدًا. تغْوِينَني فَأمْسكُ بك. أعْرِكُ عَجينَتَك. حَتَّى تَلين. أريدُ الأناملَ أن تَمُرَّ مَرًّا خفيفًا. فإذا هي تَجُوسُ غائرةً من لين صَلْصَالك.

أصْنَعُ المَعْنَى. وأرْسلُ به. و كُلِّ خُيَلاَءُ بما صَنَعْتُ فيرتَدُّ إليَّ. و قد ابتسم له المتلقّفونَ. وَغَمَزُوا بي. و تهامسوا: لم يَدْرِ أنّه المصنوعُ. وأنّ المعنى صانعُهُ. فأكتوي بمكرهم. وأتأوَّهُ بحالي مَعَك.

والذينَ أعحجَزْتهمْ. وَعَقَلْت لسانهم. كَبَعيرٍ ثَنَوْا ذراعَهُ. و كفارسِ النّومِ يرومُ ركضًا. هاهم تَشَرَّدُوا عنك. فالتفُّوا يراودونني عليك.

هاهم يقولونَ.

مفتونٌ بضَاده. فَاتِنٌ.

هاهم يُنْشدُونَ.

أيتها الضَّـــادُ.

الروحُ أنتِ و أنتِ الروحُ فاستمعِي.

الرّوح أنت و أنت الروح فانهملي .

هوّني على سائلك . وألهميه ظنًّا يَشُدُّ به أوْدَتَهُ . وَسرِّحي له الشّكائمَ . و اتركيه على بعضِ وَهْمِه . أنَّهُ يَصنع فيكِ صُنْعًا . و يُركّبُ بِكِ أصْبَاغًا . ثم يسوّي بِكِ تمثالا .

فإذا انتهى إلى الميعاد . ففاتحيه بلطفٍ . وَصَوِّرِي له مرآةَ الظّلّ . و لا تخافي عليه . فبعضُ الجمالِ أقسى من بعضٍ .

لن يَقْذفَك برصفٍ . و لن ينالك منه سوءٌ . فالكائنُ الْجَسَدُ أعْجَزُ من أن يُلَوّثَ بنُفَائَتِه شُهْدًا مُصَفًّى . فيهِ سحرٌ . و فيه الحِجَى . فيهِ الوَجَعُ . وفيه الشّفَاءْ .

عَلاَمَةٌ

أيتها العربيّةُ.

لأنْت لذّةٌ تُغْري. لَلشّعْرُ حرّيةٌ لا تُبَالي. و العزّةُ مُدْيَةٌ تَستأصِلُ الأورامَ. أقولُ فأرتوي. وأصْمُتُ فتختال نفسي. يَرَى الجائعُ شهِيَّ السَمطَاهي. فَيُمْسكُ. و تَمْتَدُّ الكأسُ الزُّلالُ للظّمْآنِ و هو يتلوّى كَالْمَجْمُورِ. فَيَلْعَقُ الرّيقَ مُتَبَلّلا باللّطفِ.

ويتصَلّبُ التّوْقُ. مُخَاتِلاً. ثم يَغْضَبُ. كالحليمِ الذي أفقدوهُ الصبرَ فلم يَبْغِ احتسابًا. و كعاشقٍ تعلّقوا به. فألانَ عِنَانَ النّفس. وأهْدَى شكائمَهَا. ثم فعل الدَّهْرُ فعلَهُ. فأنْساهم شأنَهُ و ما فَعَلَ فَأقْسَمَ متوعّدًا. ولم يَدْرِ أنه يكرّرُ السخاءَ.

أنا الكلامُ.

أنا اللسانُ.

فوقَ كلِّ هَوًى كبريائي.

فوقَ كلِّ الناطقينَ شُمُوخِي.

خُلقْتُ أنــوفًا .

سَأبْـقَى .

لاَ أطرُقُ الألفــاظَ مستنجـدًا .

لاَ ألْـثـمُ الأرضَ باكيا عـزَّ الحبيبِ .

أدوسُ على الحسِّ الهفيف .

أقْبضُ الأنفاسَ لقلبٍ وَالــه .

و أقول في صمتٍ و في وَجَــعٍ .

لا خيرَ في شعرٍ سقاني الْـجَوَى .

وَ أضْعف نفسـي فَـأذَلّنـي .

لا خيرَفي لفظٍ يُـجَرّدُنـي شموخي و كبريائي .

تَـصْـغُرُ الدنيا و تعلو لغتي .

ينحني الشعرُ و تَـشْـمُخُ عزّتي .

لاشعرَ عندي إلا متى يسابقني اللفظُ في طاعتي .

وجاءت اللغـةُ . تمــشي الــهُوَيْـنَا . بألــفاظها . بكلِّ الكلمـات . جـــاءت . وفي عزِّ كـبْـرِهَا . و جبـالُ التّيـه شاهــقةٌ . وهي نافــرةٌ . سكْرَى . مكابـرَةٌ . أقسمتُ عليهـا . وَأضْمَرْتُ يميني . لَـتَـعْرِفينَ مَعِي . كَـرَّةً أخـرى . حرْقَـةَ الشّعـرِ و أوجاعَ الكـلامِ . وَلَـتَلْثمـينَ مِدَادَ اللفظ ساجيَـةً . وَلَـتَطْلُبِينَ رحمةَ الأرض و هـي ظامئةٌ . وَلَـتَـهْمِـسِينَ . بكلِّ

الجوارحِ . قائلةً . لاهثـةً . اسقِـني بربّ الكون . واغفـر زلّتي في الشعرِ . ما كان حقّي أن أتيـهَ . ما كان حقي أن أجُـورَ .

كُـلُّ مَا تَـأتـيه مُـطَاعٌ . مقـدَّسٌ . أقَبّـلُ الأطـرافَ . و أنحنـي . و أقول في غير تَـمَنُّعٍ . ماشئتَ . روحي إليكَ . و هبتُـها يَـا آسِـري .

أيتهـا اللّغـةُ .

أرا كِ تراوديننـي . وأمرُكِ نافـذٌ .

بنفسكِ لن تُـغْرِيـنـي .

لن أقول بكِ شعرًا .

لن أمَـكّـنَـكِ من نفسي .

تَـمَـرَّدِي ما شاءَ لَـكِ الإبِـبَـاءُ .

راوغيني كيفما بَـدَا .

ثم عُـودي فـأسْلِـمِي .

فأنتِ صنيعتـي .

نَـــصٌّ

زارني يومـا شيطـانُ الشعر . وحادثني . ثم رَوَى عني مفتريا . قال .

صـــادفني على غير ارتقـابٍ رســولٌ . دَفَعَتْ بـــه حـرّةٌ . كـــانت تقول . كلّ الرجالِ قَـفْرٌ . و بعضهم قَـفْرٌ و جَـدْبٌ .

فَأسَـرَّ لـي بما أسَـرَّ . وانتَـظَـرَ . فقلتُ له . حبُّ الكلامِ من الهوى . و الهوى يـُورّثُ الغوايــةَ . قال . ومـا حبُّ الكلام . قلتُ . إذا تَـحـدثْتَ و الناس حولَـكَ . بعضُهم يَسمعُ . و الآخر كأنما يَسمعُ . و قليلٌ منهم مَنْ يُصْغِي إليكَ . قـــال . أفليس حبّ الكـلام من حبّ العبـــادِ . قلتُ . من أحَبَّ الكلام أحَبَّ نفسَـه . و من أحبّ الناس أصغى إليهم .

قال . و هل تتبـدلّ الأحوالُ .

قلتُ . إي وربيّ . إذا خـاطبتَ أنيسَك وبينـك و بينـه المسـافـاتُ . فـالكـلامُ إليـه أرواحٌ مجسَّـدةٌ . و الألفـاظُ على الشّفـاه و على الخطـوط كائناتٌ تتنفّسُ . و تَرتدي الأثوابَ . و تـــرُدُّ عليكَ الصّدى . تقولُـهـــا . و تَـلْمسُها . ثم تراودُها . فتضمُّـها . فتُـعانـقُكَ . ثم يَـلَـذُّ لـك إثارتُـهـا . فتثورُ . و تُـمسِكُ بكَ . فتحتضنُها . و تفارِقُ بها الأرضَ . و ترفعها بيديك

إلى فضاء السماء . ثم تستقبلها . و قد ضَحِكَتْ إليكَ . فَتَضغَطُ بصدرك ضغطةً تُطْلِق أزَّةً و لا تُفصِح بالأنين . حتّى تَصِيحَ حروفُها فَرَحًا . وهي تتألم . ومازلتَ بالكلماتِ . و هي بك . حتى تَحْسَبَ أنها غيرُ الكلماتِ قد حضر إليك . كما تحضر الأرواحُ . فلا تُسَلِّمُ جفونَك إلى مَنَامِ الليلِ إلا وهي في أحضانك .

قال .

فسمعتُ الحرّةَ بعدها تُرَدِّدُ . و تقول . كلّ الرجال كأشباهِ الرّجالِ . إلاّ واحدًا . ولم تزد شيئا .

ثم هَجَرَتْ قومَها . و صَبرتْ على الأذى . فطلبوها . فأرسلتْ إليهم :

إذا طرأ الطارىءُ . و ارتجّتْ القواعدُ . فاندكّتْ أبوابُ النفس . و إذا ماجتْ الأركانُ . و تداعتْ الجوانحُ . فَتَمايَسَتْ أعمدة اليقين . و إذا تكاثفت سحب الشك . و تلبّدت الغيومُ . فدوّت الأعاصيرُ . حتّى لكأنّ الدنيا غيرُ الدنيا . و إذا النفس أنكرتْ نَفْسَهَا . و الجُحُودُ على الأبواب . و المِقْصَلُ يهوي على ما مضى قَطْعًا وَبَتْرًا . والتاريخ سَلَّةٌ كبرى . واليد كالأظافر . تَسْتَلُّ و تَنْهَشُ . تَحْفِرُ في الذاتِ . و تغوص على الأغوار فَتُخْرِجُ ما تُخْرِجُ . و تُلقي ما تلقي . و تُعاد الساعةُ على أوّلها . يومَها قولي . أنا الفاعلةُ . يومها قولي . أنا الساعة . يومها قولي .

إني به . يومها شُدّي على المِعْصَمِ . و على المسابح . و اعْقدِي ألفًا و ألفا . قَطَرَاتٍ من الوجد . كحبّاتٍ من اللطف . يومها قولي . ثم قولي . إني أنا .

تَرْخِيـــمٌ

قال ابن الحسن .

«يا عبـدُ : الحروفُ كلُّها مَرْضَى إلاَّ الألفَ . أما تَـرَى : كلُّ حرف مائلٌ . أمـا تَـرى الألفَ قائمًـا غيرَ مائلٍ . إنما المرضُ المـيلُ . و إنما الميلُ للسَّقَـامِ فَـلاَ تَـمِلْ .»

قالت الفصحى .

في الـدلالةُ أسبحُ . وبـالإيحاء أفْـتتنُ . و عـروسُ اللفظ شاعـرة . جاءت من الصحراء . جاءت و في يـدها . قنديلٌ من الأصوات . بَحريـّةٌ . جَبليـّةٌ . أفرغتُ شِبَاكَهَا . و اصْطَـفَيْتُ فصوصَها . و التذَذْتُ بصفـوها . و سَبَـحْـتُ في الموج . غائصا . و جريتُ في الصحراء معانقا . لثمتُ شفاهَ الـرملِ حتى أذَابَـني . حُلْـوَ الـمَذَاق . عَـاريَ الزَّبـَـد . وأسْـدَلْتُ مـائلَ الشعرِ . و قلتُ للتي سَـبَحَتْ . فوقَ اللُّجَيـْنِ . إلى الماء . فعنده خَـبرَي . ألوذُ و أطفو . كقـائلِ الشعرِ . في غَزَل . و الأنفاسُ شـاديةٌ . أبحرتُ . إلى الأعماق . أهفو . كَـرَطْبِ النسيمِ . غاديـا في الجوّ . خَفَّتْ مُهْجتي . فـالمياهُ قصائدي . و الرمـالُ . و الأمواجُ . كَـنَسِيمِ لفظٍ . ساحـرٍ . و الشواطىءُ .

كلُّـها . تجـري . راياتُـها الشعرُ . و ألحـانُـها نَـغَمٌ . و رحيـقُ صـفَـوِي .
و الزّمنُ . يالفظي . و يا زمني .

رَدّ ابـن الحسن .

قال

«يـا عبـدُ لا إِذْ نَ لَـكَ ثـمّ لا إذنَ لَـكَ ثم سبعـونَ مرّةً لا إذنَ لَـكَ أنْ تَصِفَ كيف تـراني و لا كيف تدخلُ إلى خـزانتي و لا كيف تأخذ منهـا خواتمي بقدرتي و لا كيف تقتبس من الحروف حرفا بعزّة جبروتي » .

قال الراوي .

هو ذا الخاطرُ . من أعالي البرُجِ . و الكونُ أخضرُ . والأشعّةُ بازغةٌ . و الخالدُ . تَـجري مياهُهُ . و الصَّحْنُ يدورُ . و قلب البرجِ ثابتٌ يرسـو . و نحن طَوَافٌ . و كـذا الدنيا . بنا . تمورُ . و الخاطـر سائحٌ . واختصرْنَـا الزَّمَنْ . مـنْ عَلَى البرح . و قلنا قصّةَ الألَـمْ . وَحكَـتْـنَا أساريـرُ البِـلَى . وَصَفَا الخَـلُّ . وَسِيقَ الدّهرُ مِنْ جيدِهِ . و قيل للكون . حَـلّقْ بنا . وكَانَ الذي . قدأفصـح بإعجازه . وجـهٌ . كالصامتِ . ولَـحْـظٌ . كالتّائـه . وبريـقٌ . خُـذُوا الدنيا و هـاتـوهُ لِـي .

أجـاب :

« وقـال لي تَعـرفُ الأسماءَ و أنتَ في بَـشَـرِيَّـتـكَ . يأكل الخَـبَلُ عَقْـلَـكَ . وقـال لي لِـيَحْذَرْ مَنْ عَرَفَ أسمائي من خَبَلِ عَـقْلِه ثم ليحذرْ

مَنْ عَرَفَ أسمائي من خَبَلِ قلبه ».

قالت :

عيدٌ من الأعياد جاء مُصَافحًا . فالمواليدُ شتّى . و الأعيادُ بلا حساب . وعيد اللفظ هو العيدُ . وهو بمفرده عيد الأعياد . مَوْلِدُهُ الذّكرى . و الأعمارُ خالدةٌ . أنا اللغةُ . أوقفتُ عَدَّادَ الزمن . أوقفتُ عقاربي . كُبْرَى و صُغرى . أوقفتُها . عطّلتُها . ساعة الزمن . على الجدرانِ . وفي المعاصم . و على التّلاَل . كلُّها . ساعةُ الزّمن . ساعةُ التاريخِ . تجمّدتْ . في شرايينها . دماءُ الزّمنِ . أهدرتُها . قلتُ للأيامِ . كما قلتُ للأعمارِ . هُبُّوا . و تجمّعوا . هو البدءُ و المنتهى . و برازيخُ النُّهَى . و اليومَ . أيا لغتي . أيا ضادي و جناني . أُهديك ما أُهديك . أهديك خَاتَماً . بالأَلماسِ مُشرقةً . وَضّاءَةً . تُحَوّلُ الأبصارَ عن وجنتيكِ . فأنا أغار على وجنيتكِ . وأنا أخاف الناظرينَ . الفاتحينَ أفواهَ العيونِ . و السابحينَ . كالغرقَى . في لُجّ الجمالِ . جمالك القهّار وقد رَوَّضَنِي . حتى غزاني . فأحببتُه . و استطبتُ هزيمتي . اليومَ أهديك قلائدي . أهديك . أسواري و مسالكي . أهديك خريطةً . مرسومةً . تَسيحينَ بها في الأزقّةِ . في الأدغال . وفي الزوايا و مكامني . تتجوّلين و المعطفُ في اليَدِ . و الشتاءُ بعزّه . تتجوّلين . و الشمسُ بازغةٌ . و الغمامُ مظلّلٌ . في القيظِ . وفي العواصفِ . في الحرّ و في الشتاءِ . و في

كل زمنٍ . أهديكِ خـريطتي . و مَرَاكبي . تَطُـوفينَ . في بحر الهوى . وفي العـالم المسحـور . وبين شوارعـي . اليومَ أهـديكِ أغنـيَّةً بلحنٍ خالـدٍ . بِـوَهَجِ الشوق . بِكبريتِ الـوَجْدِ . أوقِـدُ الشموعَ .

أهــديـكِ .

ما أهـديـكِ

أهــديكِ اعترافي .

قال .

« ياعبــدُ

الحرفُ نَـاري .

الحرفُ قَـدَري .

الحرفُ حـتـمي مِـن أمْـرِي .

الحرفُ خـزانـة سِـرّي .

يا عـبـدُ .

لا تَـدْخُلْ إلى الحرفِ إلا .

و نظـري في قلبكَ .

ونوري على وجهكَ .

و اسمي .

الذي .

ينفسح له قلبُكَ .

على لسانكَ (. . .)

فإذا أرسلتُكَ إلى الحروفِ .

فلْتقتبِسْ .

حرفًا من حرفٍ .

كما تَقْتَبِسُ .

نارًا من نارٍ .

أقولُ لَكَ .

أخْرِجْ ألِفًا من باءٍ .

أخرجْ باءً من باءٍ .

أخرِج ألِفًا مِن ألِفٍ . »

قال .

إني زائرٌ و أهْوَى . سائحٌ و الوجدُ معي . راحلٌ وَحَقِيبَتِي . شوقٌ وحبٌّ و أحلامْ . شاعرٌ . وأنثُرُ الدرَّ على الكلماتْ .

أيتها الكلماتْ .

أيتها الكلماتْ .

هل تسمعينْ .

هل تسمعينْ .

أنا ما تعلّمتُ أنصافَ الحلول . خُذيهَا أوْدَعيهَا . لا شيء بعد اليومِ أنْكِرُهُ . ولاأبِيٌّ على الأشجانِ يَنْكسِرُ . أنتِ اللغة . أنتِ اللغة .

قال .

« يا عبد .

ما قلتُ لَكَ ذَلكَ .

حتى هَدَ يْتُكَ لِذَلِكَ .

فرأيتَ ذَلكَ .

رآهُ قلبُك .

و عرفتَ ذَلكَ .

عَرَفَهُ قلبُك .

يا عبدُ .

ما لأفكارِكَ .

تنعطف على أفكارِكَ .

وما لهمومِكَ .

تَبيتُ و تُصبحُ .

في همومِكَ » .

السّمسمة

يُحكَى أنّ امرأةً من ذوات الأسرار كانت فيما مضى لها من أيّام العمر إذا تحدّث الناسُ عَنِ الصَّبَابَةِ تَأوَّهتْ. و إذا تحدثوا لها عن الجمالِ تنكّرتْ. و إذا جاء ذِكْرُ الرّجال التفّت على نفسها . و انقبض منها الجسد. وامتدّت الخلجات. و ابتسمت. كأنما تريد ضَحِكًا يُلقِي بها على مَدَدٍ. و كانت تخلو كلَّ ليلة فلا تنفكُّ هائمةً حتى يَحضر لها من عالَمٍ لا تعرف مَوْرِدَه رسولٌ يتمثّل إليها بهيئة نافث الشّعرِ. فتخاله ملاكا مُلهماً. و كانت تَرْفُلُ به. فيقول. حدّثيني بالذي تَجِدِينَ. و ماهي إلا رهبةٌ حتى تَقُصَّ عليه قصّتَهَا مع الأحشاد. ثم تَلْعنهم. فينصرف.

و في ليلةٍ دَعَتْهُ فَأبَى. فَسكَنَتْ إلى عزلتها. وقالت. هذا نذيرٌ. ولمْ تكترثْ.

فلقد نال الزمانُ من عزمها حتى ارتاضت جَلَدًا .

فاستلقَتْ. وأغْمضتْ. ولم تكن من حولها الأنوارُ. وقالت. ما بالُ الناس واهمينَ. ما من أحدٍ يروح و يجيءإلا و أنا عنده من أسعدِ خلق الله . يراني على خُلُقٍ يَفعل في النفوس فعلَ الآخذين. ويَشهد ما يعتري

الوجنةَ مِـنّي . فَـيُشْـفِقُ إشفاقا يَعِـزُّ عليه . و يراني على يقظةٍ ليست كيقظةِ حَـوّاءَ . حتى إذا ضـاق أمري أبديتُ انشراحا . و مـا هو بالانشراح . وإذا اغتـرَّ الناس بي أفَضْتُ عليهم من رحمتـي . و النار تلتهب في جـوانحي . أكتم الغيظَ . وأقولُ . قَـدَرِي .

و مرّت الأيـّامُ .

وازدادتْ الأيـّامُ .

و أبرمتُ في دُنْـيَايَ عَـقْدًا قلتُ لا ينصرمُ .

هـي ذا الحيـاةُ .

أنِسْتُ بِشرِهَـا .

حتى قلتُ هي لي . وهو منها .

أقْـبَـلْهَا كارهـةً .

و أطَهّـرُ ما تَـجِيـئـني به .

أغْسِلُ الأدرانَ .

وأصْمُتُ .

وارتضتُ بما أنا عليـه . وارتاض بي . و أنسـاني اليأ سُ كلَّ أدعيتي . فلم يَـبْـقَ لي منها إلاّ دعاءٌ كنتُ أردّدهُ كلمـا حَلَـلْتُ بين السّـوادِ يَـغْـدُونَ و يَرُوحُونَ . فأقول . اللّهمَّ إن الصّمتَ عبادةٌ . اللّهمَّ إنّ الصّمتَ عبادةٌ . و كنتُ أحـرِّكُ به لساني . و لايُسْمَعُ لي منه صَـدًى . حتى كَشَفَتْ أمْـرِي

كاهنةٌ. فَلاَ بَسَتْنِي. وَقَرَأتْ تَمَائِمَهاَ. تُميط اللّثامَ. و أنا في عزلتي. كأنَّ بيني و بينهـا الأمَـدَيْنِ. و كنتُ أقـولُ. إنْ هي إلاّ واحـدةٌ من السوادِ.

فَحَمْلَقَتْ و زمجرتْ و اعترى و جهَهَـا الغَضَبُ و انبثق من مقلتيهـا شَـرَرٌ كاللّهَبِ. و قَبَضَتْ على مَرْفِـقي قبضةً أوجَعَتني. وما حَلَّ بالنفسِ أعظمُ. فرجعتُ نفسي إليهـا و كأنها من الأدغال. و سـافرتْ بي فقطعتْ بَرًّا في رَحِمِ الأمزاج. ولما رأت في عَيْنِي بريقا اطمأنَّتْ و ضَمَّتْني إليها. ثم أمسكتْ مني الكتفين و تنحّتْ بوجهها عن وجهي و أسـدلتْ ثـوبي و ثوبها و طأطأتْ بـالرأس و انتظرتْ حتى فعلتْ فعلها فقـالت في صوتٍ حنينٍ كأنـه آهـةُ الـوضعِ تتلـو أنّـةَ الأوجاعِ والأمُّ يَـقْظَى و الـوليـدُ على الفراش: سيأتـي من يُـبَدّلُ حَالَـكِ و لا تَـشْعُرِينَ.

و مضتْ و تركت في نفسـي ما إنْ سألتُها عنه حارتْ جـوابـًا.

ونَسِيتُ أمـرَها.

ولا أذكر لها إسما.

ودارت الأفـلاك. ولا يمـزّقني الآنَ أمـرٌ كما تمزّقني غفلتي عنهـا. تتآكلني الحسرةُ أنْ فرّطتُ في حبل الأسباب لها. وَعَلَيَّ مِلْءُ الأرض لو أنّ بصيراً أرْشَدَنـي اليومَ إليها فأضُـمَّهَـا وأقَـبِّلَ منها الجـبينَ.

مِـــدَادٌ

مِن النـاس مَنْ يُـفْـتَنُ في مَالِـهِ . و منهم من يفتن في إيمانـه . وقـد يُمتحن المرءُ في بَدَنـه . وقد يُبْتَلـَى في عقله . ولقد فُتِنْتُ في كلمـاتـي . و الفتنة دخولٌ إلى النار تَصْـهَـرُ الذَّرَّات و تَصْقُـلُ فتخَـلّصُ من الأدران .

و العشقُ فـتـنةٌ للمرء فإذا المـرءُ في عِشْـقِـهِ فـإمَّا إلى انتحارِ الذاتِ بِحُبِّـهَـا و إما إلى خلاصها به إلى الأبَـد .

فَـأنعِـمْ بها من فـتـنةٍ إن كان الخلاصُ مـآلَـهَا .

قالت الكلماتُ :

تـاللَّه إنكَ لمحبٌّ لِـنَفْسِكَ . مُغْرمٌ بها . مفتـونٌ فيهـا . متهافت على ما يُـرضيها .

قال :

إي وربِّ السّماءِ .

قالت :

ألا تراكَ متعلّقا بحبّ من أحبّكَ أكثرَ مما أنت هائمٌ بمن أحـبّك .

قال :

لستُ أدري . ولا مُنَجّمَتي تدري . ولكنّ الذي أدري أني ما عرفت نفسي إلا يوم عَرَفْتُك . عرفتُها في سرّها وفي نجواها . عرفتها على أسْنَامِ قوّتها وفي سُفُوحِ ضَعْفِهَا . عرفتها في كبريائها و في انعطافها . وفي خُيَلائها وزهوها كما في لِينِهَا و انسياب أطرافها .

رُحْمَاك .

رفقًا بالرّضَى .

رفقًا بلين الحُلَماء .

وسأل ابنُ دُلاَمَةَ أمَّهُ عن سعير الغضب فقالت :

الغضب فتنةٌ فلا تصطنعْهُ . فإن غَلَبَ عليكَ في خيرٍ فَهُوَ خيرٌ فاستعن به على تطهير النفس من أدرانها وَ صَفَاء السريرة من غَلْوائها . و العُشّاق أشدّ الناس غضبا و أسرعهم إليه فلا يلومَنَّهم أحدٌ فيه . وإنما ترى الواحد منهم يُكَابِر فَتَعِزُّ عليه نفسُه حتى يسوء ظنّه بالعشق فلا يَعْلَمُ الناسُ إن كان عاشقا أو كان مُصَانِعًا حتى إذا غَضِبَ انكشف الغطاءُ وانجلت الحُجُبُ فَبَانَ منه ما كان مُختفيًا .

قالت دُلاَمَةُ : وهذا من أعظمِ أسرارِ الغضب و من أجَلِّ فضائله .

ثم سألتُ بركانَ الغَضَبِ :

مَن أشعل نيرانَكَ . من أضرم لهيبك و أطال حريقك . من يا تُرى أوْقَدَ تَنُّورَكَ و فَجَّرَ أفرانَكَ . و من الذي سَلَّطَكَ فأمسكتَ بي

و استعبدتَ فؤادي . ومن أوْقع بيننا فَركبتَني كصهوة الجيادِ .

قال :

لا تسألْ . فَحُمَمِي تُخْصِبُ الأرضَ فتتدفّقُ بها حُبلىَ وَلُوداً جنينُها الحبُّ يُبعث بعثا جديدا . وتُسقَى بِرُغَائِهآ شرايين القلب فَيَنْبُضُ بما كان ينْبُض به حتى الأزلِ .

قلت :

لَبَّيْكَ يَا غَضَبِي .

لبّيكَ يا غضبي .

حَـرْفٌ

سئل الملائك أنَّ أهل الأرض قد استحدثوا من الأنا لفظا أطلقوه على من أحبّ نفسَه وآثرها على من سواها .

قالـوا : دأبُ أهل الأرض عصيانُ خـالقهم . فقد وَضَعَ لهم الأنثى ولم يجعل لهم لفظا . ووضع لهم اللغـةَ وجعلها أنثى .

هي تُـحِبُّ فلا حبَّ كحبّها . و هي تتهافت حتى لهي إلى الفناء عالقة بـالعَدَمِ . ثم هي تُـحِبُّ حُـبَّهَـا . كحبّهـا من أحبّهـا . تَـلُوكُ اللّفـظَ . وتَعْلكُ الأوصافَ . وتُـحَـلّـي الـمَـرَاهِمَ . وبيدها تَـصنع الْـبَـلاَسِمَ . تُـضَمّدُ ماحَـفَـرَتْهُ عَلَى الجَسَـدِ . وتُـواري مـا نَقَشَتَـهُ على الـرُّوح من الـمَغَارِزِ .

مملكـتُها من هـروب الناس عن أحـوازهم . وعـرشُها من خـوفهم المكرَ واتقائهم مذلّـة الأسْـرِ وسـوءَ الإفصاحِ . والقوّةُ لها أنْ تُـمسكَ بمن حَـوْلـها من مقابض الـوَهَـنِ ومَـرَابِضِ الأوجـاعِ .

عَـلَّمَـهُمْ بعضَ ذلك أبوهم يـوم نزل إلى الأرض ونزلت حوّاءُ فراح يبحثُ نهارا ويَسْـتَجِمُّ ليـلا . وظلت سـاعيـةً بـالليل و النهـارِ حتى إذا

تصادفا على الجبل أمسكتْ حيث كانت . وجرى مهرولا . فَأخبر صادقا .

وقالت : منذ السّماء لم أبرح موطني .

وما نَسيَهُ الأبُ أكْمَلَهُ الأبناء . فتفنّنوا في الطاعة ومهانة السؤال . وكلّما أمْعَنَ الواحدُ منهم ظَنَّ نفسَه الفتى وهو الطفلُ لا يَبرح أعتابَ المَرَاضِع .

أفّ لرجال كأشباه الرّجال .

وَسُحْقًا للأطفال يجودونَ بغير ما يَطْلُبُ الطالبُ . وَهُمْ على الوهمِ أنْ قد جادوا بما يَطلب الطالبُ .

وتَبًّا لصبية يَبخلون بأيسَرِ ما وُهِبُوا وهو الكنزُ المطلوبُ و المُبْتَغَى الموعودُ .

فكَتب كبيرُ الملائك على بعض ألواحه :

لو كانت الأنثى ذَكَرًا و الذكر هو الأنثى لاشتكتْ منه إليه أكثر مما يشتكي اليومَ منها إلينا .

خُلِقَ الإنسانُ ما أكْفَرَهُ .

ليته اكتفَى بما خَلَق اللهُ ولم يَستحدثْ لفظًا .

فتنةٌ هذا من فتنةِ تلك .

دَلاَلَـــةٌ

يالغـتي . ياشـاعرة .

سمعتُ فيما يَسمع النائمُ هـاتفا جاء يُـخْبرني أنك يـوما ضحكت . وارتفع منك الصوتُ . وأنا غائب . فلما رأيتُـك وعرفت ماجاءني أرسلت أنصافَ الجُـفونِ . وتوسدت ذراعي . وطلبت الأناملَ . فراحتْ تهدهدُ . ومـرت على الـوجنـة . فـاعتلتْهـا حمُرةٌ لم أر في حيـاتي لـونها . وأطبقت النـواظـرَ . وهمّتْ بفمي منك الشفـاهُ . فأبطأتُ بِـسـك . حتى فَـزِعْت . وجَلَـوْت الأبصـارَ . مُـحمَرَّةً . تتبلّل . فـأرسلتُ فمي . فطلبت ظـلامَ الصّمت . فأعطيتُـك نورا . وأشفقتُ عليك .

فناديـت :

ظمأى إلى لَـفْظك أُنْـشدُهُ . ظمأى إلى نخلكَ أقطـفُـهُ . الحرفُ نَبضٌ و الـمـدَادُ على الصَّـدَى . و النفسُ حَـرَّى . و البـوادي . ولـواهفي . كـؤوسُ المفـازات تَـقَاطَرُ كـالنَّـدَى . ولستُ أدري . هل في اللفظ مَـصْـرَعُنَا . أم القلوبُ على الأوتـار ترتجفُ . أم السرّايا . أم الأوجاع على الأفواه تبتسم . مَفـاتن اللفظ تهادت . ويسترقُ المنادي . ويعيـد منشدا .

إلى اللفظِ الرقيق أنـا الظمآنُ أقرأهُ إلى الحرف الجميلِ أنا الفنـان أصبغُهُ. إلى الـوجـه الصَّـبُوحِ. إلى النورِ المضيءِ. أنـا اللّهفـانُ. لهفي على الأشعـار أغْـزِلُـهَـا. وعلى الضفائر. تَـمرّ يَدي. تهدهدها. إلى سَعَفِ النخيلِ. أليـافٌ مُذهَّـبَـةٌ. خيـوطٌ تترامى. بأصبـاغ الحروفِ. إلى الكلماتِ. بمسكِ نَـدَاكِ. أملـؤُهـا. إلى خفقـاتِ القلبِ. أسمعُهـا. إلى نَبـَضَاتِ اللَّحظِ. وهـو يرتعش. إلى الوَجَفَـاتِ. أرْقُبُهَا. لهفي على لغتـي. حبّاً يعانق الألفـاظَ. مُذْ بَـزَغَتْ. نجمةُ الأعراب فـاتنةٌ. رَبَابُـهَا الشعرُ. وهي نائيـةٌ. فمتى الألفاظ تـزدهرُ. ومتى الأمصـارُ تقترب. وتزولُ عن لغتي الشكوكُ. وينطلق اللسـانُ مُـجَـدَّدًا. فَـتَقْـتَـرِبُ الأمصارُ. وتُلْقَى على الأبحارِ. جسـورٌ ذارعاتْ. تَـلُـفُّ الـمَخَاصِرَ. قـدوداً مائسـاتْ. ويلينُ لك الطَيفُ العنيـدُ. و الشعـرُ أكبرُ. كم في اللفظ من عَجَبٍ. مِلْءَ القلوبِ. كـوحدةِ الأوطـانِ في وطنٍ. ياوحـدتي. ياوطنّـا. يالغتي. لا الشعـرُ منكِ يُرضِينـي. ولا الإيقاعُ بعيـداً عنك يَـرْوِينـي. ولا الكـونُ يَـصْفُو إلا متـى الألفاظُ تَـتَّحِدُ. وينبـثِـقُ اللفظُ الكبيرُ. فمتـى الأجراحُ تندملُ. ومتى الأطيافُ ترتحِـمُ. فيؤوبُ لي رُشْدِي الذي. على صَفَحَاتِ اللفظِ ينتشِـرُ. وبين ضِفَـافِ النخلِ. يـزدهـرُ. وتـؤوبُ لي لغتي التي. كألفِ سَنًى في ربيعِ عُـمْرِيَ تَـا تَـلِـقُ.

تَـرْتِيـلٌ

إليكَ أيا سيّدي .

إليكَ أيا ناطقـي . يا متكلّمي .

أنا اللغةُ . إني أنا العذراءُ وإن صُحِبَتْ . مازلتُ بجوهري المكنونِ هازئةً بـالشعراء . بالحكماء . بسخـائهم يُسيلُونَ من الأمهـارِ أوديةً . ومن الأشعـارِ أفئدةً . يَـجْرُونَ . وهم لاهِـثونَ . وراءَ المحارِ و الأصـداف . حتى إذا مافَـتَحُوا . بابَ القلاعِ وابتَهجوا . بالنّصرِ . بـالكسبِ . باللّـذة العَجْلَى . عادوا إلى نَشـوة اللفظ . على الأكتاف أرديـةٌ . من لُـجَـيْنٍ ومن ذَهَبٍ . والـوهمُ قَـاتلُهُمْ . فـازوا بِتلكُمُ الأُنثَـى . وقـد كَسَـبُوا . كأسَ المواسمِ . والصّدورُ تُوَشّحُهَـا . دوائرُ الأذهابِ . ومافَطِنُوا . ومـاعَرَفُوا . مفـاتحُ القلبِ . في غير ما قَصَـدُوا . مفاتحُ القلبِ . والألبـابِ . سيّدُهـا . أميرُ اللفظِ . فارسُ الأحلامِ . صانعُ العشـقِ . نَاحِتُ الأمثالِ . إلى البيانِ . وفتنةِ الكلماتِ . كلُّ العَذَارَى . والطائراتِ . والفراشاتِ . تَـنْجَذِبُ . حتى تـذوبَ . بضـوء النـورِ . بنـارِ الوجـدِ . وتُعْلِنُهَـا . وتقـولها . على طـولِ الـمَدَى . إليكَ يا مَـلَكِي . إليكَ أيـا سيّـدي . إليكَ . أنا العـذراءُ . إليكَ

دمي . فـارتشفْ على قَدَحٍ . واسقنـي من دمـي . فـلا النـارُ وأنتَ مني بحـارقـة . ولا الأنـوار في غيرِ وَجـدكَ سـاطعـةٌ . فـالنـورُ أنتَ . و النـارُ وجدُكُ . و اللهيبُ . لهيبُ لفظكَ . وأنا فيكَ فانيةٌ . فلا تَـرْحَمْ . عليكَ بي . عليكَ بي . فذاتُ الأشجانِ تأوَّهَتْ . فَشكَـتْهَا الـزَّفَرَاتُ . مُرْهَفٌ قَـلْبِـيَ و الأوجـاعُ تلتهبُ . و الصـوتُ مُنْخَنـقٌ وتلكمُ الأنفاسُ . ويجثـمُ الخَوفُ . داعيًـا متبتّـلاً . ويلـوحُ في الأفُـقِ الـمَرَامُ . الأزهـار تَلْمَسُني . وأشجـارُ الـربيعِ . والصـدرُ مُنتـزَعٌ . والطّـائرُ الخفَّـاقَ . أوّاهُ يَشـدُّني . جَنـاحَـانِ في كَبِـدي . و السماءُ . و الغـربُ . و الشَّـفَقُ اللّمّاعُ . وبحـار الموجِ . وتهـاليـل الصّبـا . و الماءُ مُفتـتنٌ . وتُشرقُ الشمسُ . هـاتـوا القَـنَاءْ . هـاتوا المغاربَ . ولْـيَسْكُتِ الصوتُ . ليمتـدَّ الـهَوَى . والرَّجعُ قادمٌ . وفي الليلة الظلماء . يَصْمُدُ الثائـرُ . ويثوبُ الصابرونَ . والتائهونَ . و العـائدونَ بـرَجع الصَّـدَى . و الـمُقْسِمُونَ . تـالله لراجعـونَ . وليلـةَ الـرحيلِ . دموعٌ ذارفـاتٌ . و الكُحلُ مغتسلٌ . وأوديـةُ السَّـرابِ . تَقـرأُ الكفَّ . قلـوبٌ وقلـوبْ . ستائرُ الـرّوضِ . وألـوانُ العطـورِ . أعناقُهـا الجِيـدُ . والروابط تلتـوي . وتزهـو بها الأشواقُ . و الأيـادي الواثقـاتُ . تُغـازِلُ الثـوبَ . والمرآةُ بـاسمـةٌ . وتَـخْجَلُ العينُ . ويمتـدّ الحديثُ . والحناجر واجفاتٌ . وفي كلّ صباحٍ . وثـاقٌ جديدٌ . وروابط الأعناق قيدٌ محبَّبٌ . وتحلو الملابسُ . و النواظرُ سائلاتْ . خفِّفِ الوطءَ . أفلا تُغَنّي .

ويحتفلُ الجمعُ . وَيَطْلُعُ البَدْرُ . ويصيحُ بِالْـمَـلإِ الوَدُودُ . ما بـالنا نَـقطع الأيدي . فيوسفُ هاهنا . وزُليخاءُ اليَمَن . على العرش مالكةٌ . والصرّحُ الممرَّدُ . و المليكُ الشامخُ . لُـجَّةٌ من قـواريرْ . ويَدخل التاجُ . ويأتي على سَـبَإٍ . يـوسفُ و الأميرْ . وتأتي الهُوَيْـنَا . وتَـحْمَدُ العَرشَ . داعـيـةً . أفّ لهـمَ . فيوسفُ أنتَ . وأنت السُّـليمانْ .

لَـهْجَـةٌ

أيتهـا الأنثى . مـاأنت إلا لهجـةٌ . صَـه . لك عنـدي صـورةٌ . لاتتحـدثي . أخشى عليهـا . أنْ تتـدحـرج شُـرُ فَاتُـهَا . فـاسْكُتِي . سَتَنْزِفِينَ دَمًا . سَتَشْقَيْنَ عذابًا . سَتَسْألِينَ المِرآة كلَّ صباحٍ . أكلامي . كان نزوةً . أم كانت لهجتي . أم مَسكَني . أنا التائهـة . عرفتُ الأحوالْ . كلَّ الأحوالْ . في مَطْلَعِ الكون . انفجـارُهُ الأكبرْ . في بدء الخليقة . كَلِمَهْ . وآدمُ كَلِمَـهْ . وحـوّاءُ . و الشعـرُ . كلمـهْ . وبـدايتي . كـانت . كلمـهْ . فعشقتُ الكلمـهْ . على جـدار الصّمت . كَسَـرْتُ قلمي . بين الهواتف . ضاع صـوتي . ماخلتُ أنيّ قـد أتوبُ . مُذْمِنًـا كنتُ . فاقـدًا حِسَّ الإباءْ . فتعجّلتُ الغـوايـةَ . واستَطبتُ من الهوَى . ونـاديتُ بـالأحضـان . أيتهـا الدواهي . إني لَـأنتحلُ القصائدَ . مستلذًا بدمعها . كاظمًـا لغيظ الشعر . ألْوِي اللّهاةَ . وأغَـصُّ . كمنتحرٍ بسيـوف اللفظ . مُرَاوحًا بين الدعاءْ . لَزِجًا . مُـفَاخِرًا . مكابرًا . طَلَبُ الشهادة . ليس يَعْنِي . أنْ نموتَ . طلبُ الشهادة . أن نَعيشَ . وأن نَـرَى جنينَ الهوى . تفتكُّـهُ الأبـدي . ويُودَعُ . سَلَّـةَ التاريخ . مُهمَلاً . و الـمَقَابِـرَ .

ألا فانْضَرِمي أيتها النارُ. ألا فَالْتَهِبي . مع الفجرِ. وعند الغَسَقِ. وانبلاجِ النور . والخيطُ الرقيقُ . ساطعا يتسلّلُ . و القُرص الأحمرُ. والكوكبُ الهادي . و الأفلاك هائمةٌ . ويَخرج الساعي . حريصا . مؤذّنا . قَطَرَاتُ النَّدَى . تُبَلّلُهُ . وليس يدري . متى يتصبَّبُ الطَّلَلُ. أو يترامى الرَّذاذُ. الحقلُ عائمٌ . و الباسقاتُ مزارعُ ومفاتنُ . سرابيلُها الخُضْرُ. فوّاحةٌ بشَذَى اللَّواقحِ. و النخلةُ الحوّاءُ. عطرُها . يأتي السَّبايا. فَيُنْشِدُنَهُ . وتمضي بُرهةُ الفجرِ. ويعلو من الأشعة . همسٌ كهمسة الأقراص. وهي واجمةٌ . تَتَحَفَّزُ. تدعو إلى الظلّ الوَريف أناملَ الفيضِ . مَسْلاَةٌ كفراديسِ الشَّجَى. ويأتي صباحُ الفجرِ. ويَسْكُنُ الكونُ . و البدرُ يَنحجبُ. وتحتفل الأفلاكُ. و الخلُّ بخلّه. وتَصْدَحُ المآذنُ. بصوتٍ قَرَاحٍ. ألا أيتها الشمسُ . انكَسفي . ويَنْسَدلَ الظلامُ. وترتعش القلوبُ. معصوفةً. منها الرُّضابُ. يتصبّبُ. و الأيكُ محفوفٌ . بزَهْرِ الجِنان. وردًا عبيقا. تائها في الروض يتلوهُ النَّدَى. واللَّحْنُ. كَشفَاه الصوتِ غامزةً. يَعْلُو. ويَخْفُتُ. مُنشدًا. ومردّدًا. أوَّاهُ يازَمنُ. قفْ هاهنا. عليك بنا.

لو تَسْكُنُ الأفلاكُ سَاعَتَنَا . ويؤوبُ من ساحر الألوان. طيفٌ . خذ بيدي. فالأناملُ داعيةٌ . يأتي الرحيقَ دبيبُها. ويَنْبلجُ السعيرُ. كألسنة اللُّهَابِ. مالي أراكَ مسارعًا. فالعُشْبُ أخضرُ. و الرُّواءُ مكابرٌ . أنساغهُ

البِكْرُ. عيونها. تفيض من غَسَقِ الفؤادِ. جداول اللفظ. كظلال عرشٍ عند الأصيل. عند الفصيحِ. عليكَ بي. تبرّاً فتبْراً. هاتوا البرايا. كالمفازاتِ التي. بها أمَلي. بها لَهَفي. لا تُوصِدُوا البابَ. ولا الجداولُ ترتوي. إلاّ مَتَى. تُصيبُ الوجدَ. و الريحانَ. ونَرْجَسي. فُكَّ العقالُ. وأُطْبِقَتِ الجفونُ. وتحرَّكَ اللفظُ. لو نطق الطيرُ به. لأمْطرَ القلبَ بإعجازه. بإيثاره. بلحنٍ كجوَّادِ السَمَرا طبٍ و النُّهَى. فيكَ الرحيلُ. وصحراءُ أرضي. هضابها. وتلالُها. مُحْمَرَّةٌ. أحبَبْتُهَا. منذُ فجرٍ تائه بين الحنايا. فضاؤها الرَّحبُ. يلوذُ بمَعْبَدي. بالغابة الوَعْثَاء. بالعطرِ العنيف. كسهام نبلٍ. قوسُها. فاسكُني. فالغيثُ آتٍ. ومن قَبْلنَا. عَطَشُ الظَّمآن سُلافُنَا. فَلْتَظْمَئي. أوَجْدٌ هائمٌ. أم جنونُ الرّاشدينَ. القادرينَ. الفاتحينَ أقفالَ السرائر. و القائلينَ. إنَّ الفتى. أنّى أتَى. وارتمتِ الأطرافُ. وعلى الرُّبى. يَنتكس المُكابرُ. غُفْرَانَكَ الذّنبَ الذي قد تَأبَّى فَسَجَا. وأقسمتُ عليكَ. بلهجتي. بالذي أسْعَرَني. خُذْني إليه. على الميناءِ راسيَةً. شِراعُك بيدي. راياتُنَا الحمراءُ. بيضٌ. على شاطىء الزهو ترسُو بنا. مُعَسْكَرُهَا الجنونُ. وصوتٌ ساحرٌ. طُوبَى لمَن بنارِكَ يَصْطلي. يا مَن يَصطلي. وعلى جِمَارِكَ يَلتوي. وفي نهرِكَ الفوَّارِ. أبداً لا يرتوي.

شَـــذْوٌ

قُبيلَ الفجرِ. تَيقّظَ حسيّ. فأفقتُ ثَملاً. وتوهّمتُ نوما. سافرتُ فيه. لا يَـرُدّني وقتٌ يمضي. ولا أرضٌ حَـزَنٌ. حتى إذا. ما بلغتُ النُّهَى. خلوتُ إلى الحبيبِ. مهاضبًا. أجُسُّ إليه الطريقَ. بين المعاطف مترفّقًا. أدنو. ثُـمَّ أتوقّفُ. فيأخذني التَّوْقُ. ثُمَّ. يَصُـدُّني. هَفيفُ خَوْفٍ. كالرّعشةِ نَخْشَى بها. أن ينقضيَ الذي بنا. فأعاودُ. فإذا الذي بِنَا. بعضُ ما بِنَا. تَمرّ أناملي على الصّحائف. فيزهو اللفظُ متلقّفًا. وتنفتحُ المعاني. مُعانقةً. كاللّغو البعيدِ آذاه الحنينُ. إلى وطنٍ. فَحَلَّ به. يُقبّل أرضَه. ويُمَرّغُ الوجهَ على الكلماتِ. يَستنشق عبيرَ المَرافىء. يهفو. كصبيٍّ إلى المَحاضن. وسمعتُ اللفظَ يشدو. فانسدلتْ على الوجنتين. مَعازفُ الشكوى. وأحسستُ أنّ الكلام يتظلّم. يريد أن يُفاتح. فلا يُفصح. ويَئِنُّ أنينًا يَعَضُّ فؤادي. فأردّدُ له الصَّدَى. أباكيه بالدمع السّخي. ثم أضْغَطُهُ بين الحناجر. فَيُسْلِم أنّةً. تُنادي بلا مَلَل. فأحتضنُ الألفاظَ. كأني مُلاثِمٌ. ومُقَبّلٌ. ثم أعتصرُ اللّفافَ. هفًّا كأنه المعنى. أبْخِرَةُ الرُّوحِ. تُصَاعِدُ الأنفاسَ. وأتركه

يفيضُ خـوفـا . يكـاد يَغْضَبُ . حتى إذا ظَـنَّ الكلامُ . أنّـي مُعـذّبُـهُ . تسلّقتُ الهضابَ . في يَدي الألفاظُ . وأمسكتُ تـلاَ لَـهَا . عنيفًا كأنيّ ظالمُ . أجُـسُّ . ثم أمسكُ قابضا . ثم أضْـغَطُ . لا يؤوب لي حُلْمٌ . ولا يراودني الإشْفاقُ . أثبّتُ الحروفَ على الصحـائف . بين السطور . أوشك أن أقتلعَ ما بَـدَا . ومـا خَفِيَ . وأنا بين زفرةٍ و أنين . و النارُ تَـوَقّدتْ . من طوق . وخـلا القلبُ . إلا من لهيبِ شـوقٍ . كـالمعنى يَـتَخَلّقُ . أسمع أزيـزَهُ . يعلو . ويعلو . ويَلهَفُ . صائتا و مغرّدًا . رحماكَ إغاثتي . أدركْني . مَدَدًا . مـددا . لا تُشفقْ . ضفافي مـوطنُكَ . شفاهي عبيرُكَ . مكـامني أسرارُكَ . وحين توسدتُ اللّوْحَ . وَأسْلمتُ إلى اليراعِ . ذراعـي . وفاض اللهيبُ . وتوجّس الكلامُ نـقمتي . صاح بنفسه . يَـجْلِـدُهَا :

تَبّـا لساعـة كَـفَرتُ فيها بنعمتـكَ .

سُحقًا لغفلة زاغت برُشْدي فضيّعتْ حبّي .

رَجْـمًا ليـومٍ خلتُ فيـه أن أكـون غنـيّا . فَطلبتُ إليكَ هجراني . وكابرتُـكَ فيه . ثم أصْـرَرْتُ على الفُـرقـة أعلّمُكَ فيها الدّرسَ .

لا حملتْ بمثلك أُمّ أيُّـها الماردُ الـذي هَـمَسَ في كبريـائي همسًا انتفَخَتْ به أوداجي خَـوَاءً فاختلط الـدَّمُ النقيُّ بـوعثاء الضَّلاَلـة .

أيها الإلفُ الحبيبُ . ما أنتَ إلا مَن عرفتُ . ما أنتَ إلا أنتَ .

وَسَجَـا الرفيقُ . فتلَمّحتُ في العين دمعـةً . كَشَهْدَةِ العسلِ . خِلْتُهَـا

نذيرَ مَنـاحةٍ . فارتشفتُها . فكانت قَـطَرَاتِ الجَـوَى . تُسَاقِي فَرَحًا . أَبَـدَ الدهرِ . كدمعةِ الأنثى ليلةَ زُفَّـتْ إلى الحبيبِ لم تَعرفْ قبلَـهُ حبيبـًا ولا تخالُ بعــدَهُ .

ثم سكَنَ الفجــرُ . فَنِمْتُ . وسمعتُ الكلماتِ يُــرَتِّــلْنَ تســابيحَ الفِداء . وسمعتُ إحـداهـنَّ تـنادي من بعيدٍ :

كنتَ حبيبـًا يـومَ عرفـتكَ .

وكنتَ حبيبًا يومَ استشاطَ غَضَـبُكَ .

وكنتَ ألفَ حبيبٍ يومَ لم تَـهْجُـرْ ولم تَـنْـقَـمْ .

فَمَنْ لي بالسماء تُـعينني على نفسي كَيْ أخْلص لنفسي .

ومن لي بأحمال الأرض تُــعينني على رضـاكَ منــذ بُحتُ لك : إني خالصـةٌ لكَ من دون الكلمات فَصَــدَّقْتَنِــي وكدتُ بعــدَها أن أكْـذِبَ نفسي .

فعهَـلاً قبلتَ مَـتَـابتي .

هـي خـالصـة خـالصـة .

وأنـا الخـالـصة الخالصة .

جَهْـرٌ

الواحةُ جِنـانٌ تسقيهـا الميـاهُ . و الجزيـرةُ دِيـرٌ كصلاة الآمنيـن .
و الـرَّبـع روضةٌ ترتجـفُ فيها قلوبُ الخائفين .

إذا قَطعتَ زهرةً فَـتَـذكَّـرْ مَـنْ سَقَـاهَا . وإذا وقفتَ على الأهرامِ فلا تَنْسَ مَنْ ماتوا وهم يجُرُّونَ الأحجـار .

استَلَّ السِّنجابُ قطعةً وانـزوى بها في المغارة خائفـا ثم خرج يمشي واستوى على الغُصْنِ وتَـمطَّطَ فَرْوُهُ فكأنّه لم يعرف الجوعَ يوما .

الفتنةُ أن تُلْقِيَ بالأجسادِ في التّنّور تَصطلي و الافتتانُ أن تَضَعَ اليدَ مِن كفّها على الجمرِ فتكتوي فلا تَـصْـرُخُ ولا تستغيثُ .

كان شعب من الشعوب مُغْـرَمًا بالأمـثال ينتهـج فيها نهـج الصُّـوَرِ و التمثيلِ وكانوا يقولون : الرَّجُلُ كالـرأس و الـمرأةُ رَقَـبَـتُـهُ يَـخال أنه قد تَـرَبَّـعَ عليها جالسا وما يـدري أنها هي التي تُديرُهُ ذاتَ اليمينِ وذاتَ الشّمالِ .

إنْ يكُن الأبُ نـاظما والأمّ لـلأزجـال قـائلـةً فـلا تلومَـنَّ البنتَ إن فاضت بالشعرِ أقوالُـهـا .

الهاتفُ رسالةٌ و النظرةُ خطابٌ و الصّمتُ إبلاغٌ و الرحلةُ كتابٌ وقضاءُ الليلِ سِفْرٌ من الأسفار.

لشركاتِ الكمبيوتر شاراتٌ . من كُبْرَيَاتِهَا واحدة اختارت صورةَ تُفاحةٍ مقضُومةٍ. قال قائل: هذا من الفن الرمزيّ. وقال آخُر: هو من الرسمِ الجديد . وقال ثالث: هو مما بعدَ الحداثة . وقلتُ: لو لم تُقْضَمِ التُّفّاحةُ ما أُكلَتْ ولو لم تُؤكلِ التفاحةُ ما نَزَلَ آدمُ الأرضَ ولو لم يَنزلْ ما كانت حياةٌ .

السَّحابُ قد غَشِيَ السماءَ . وَأذنَ المُزْنُ بماءٍ هاطلٍ . فَجَاءَ رعدٌ . وجاء برق . وعَصَفَتِ الريحُ بما عَصَفت . وانتظرنا الغيثَ . غيثَ السماءِ . إيّاكَ أن تحوّلَ أملَ اليوم إلى اليأس من الغد وإذا شَقِيتَ بما نفسُك فيه فاسعَدْ بما يَدُكَ عليه .

لخطوط الطَّيرَانِ شاراتٌ . لهذه حمامةٌ . رَفَّتْ . وانسلَّتْ في الفضاء مجنّحةً . كأنما تطير . ولتلك غزالةٌ . تمدّدتْ . لكأنها . في عَدْوها . حمامة فرّت من أيكها . وللأخرى صورةُ طائرٍ . من الجوارح . عَيْنُ حَدَأةٍ وأجنحةُ العُقَابِ . مَخَالبُ النّسرِ و أزيزُ الصُّقُورِ .

الكونُ كائناتٌ . جمادٌ ونباتٌ وأحياءٌ . وصندوق البريد من خشبٍ ومعادن . مفتاحُه وكذا جدرانُهُ . جمَاداتٌ . و النّخلةُ نباتٌ . إذا ماتت . وجفّ رُواؤُها . وقُطعت هامتُها . فجذعُها الباقي . وقدأيْبَسَ . جمادٌ .

ألفَ الجذعُ زائـــرَهُ . وعنـــد الهجـران . أنَّ الجذعُ واشتكـى . حيٌّ بين الأحياء . تَـمَّت الدائرةُ . وطُـوِيَ السِّجـلُّ .

سيّدةٌ أمينـةٌ . جاءت إلىَ البنكِ . وفي يدهـا صكٌّ . تريـد صرفَه . فـاستلمتْ . ثم عادت . فقـالت . يـاسيّدي . ماأعطيتَـني . يفيض على القيمة . فهالكَ الفـائضَ . رَدَّ عليها الخازن نقودها . وزمجرَغـاضبًا : «أمينُ الخزانة عنـدنا لا يخطىءُ» . فحارت برهـةً ثم أفاقت . آثَـرَ الإبـاءَ فأضَاعَ عَـفَـافِـي .

الـبُـرْقُـعُ لجـــدّتي . والخـمـــارُ أمـــومـتي . و القِنـاعُ لطـفلـتـي . و الحجاب لسيّدتي . و الهَودجُ هودجي .

أخذتُ المقـودَ . وسرت بسيّارتي . على الطـريق السّـيّار . ثم أضأتُ النور . يمنةً . وإذا بي أرْكَـنُ .

لقد ركنتُ على الشّـمالِ بمركبي .

النفس عـودٌ . و الظنون نيرانٌ . يَـدبُّ لهيبُـها . استقـام العودُ أم لم يستقم . ولولا قيظ الشك . لما عُرِفَ برد اليقين .

في يـدي اليمنى وردةٌ . وعلى شفتي السفلى تَـــمرةٌ . وفي مسـامعي لحـــنٌ نجـيّ . قـد عـانق شعرا رقيقـا . والكفّ تـلامس بأنـاملها . مسّـا شجيّـا . ففاح أريجٌ . وعـاودني عَـبَقٌ . وساوَرَتْـني مَبَاخِـرُ الشرق . في قلبهـا عـــود . وعلى المشـارف جمرةٌ . الخوفُ مـن الحبّ . كالخـوف على

الحبيب . كارتعاشة البَرْدِ الصقيعِ . كالحمّى في شدّة القيظِ . أحببتُ خَوْفَكَ . أحببتُ جمركَ . عشقتُ قيظ حِمَاكَ . مثلَ ليلٍ هادىء . مثل الظّلمة في السكون . يَحَارُ القلبُ . يطول السُّهادُ . ليس القادم كالمُرْتَحِلِ . ولا يومي يُشْبِهُ يوما من أيام أمسي .

إذا زُلزلَ العرشُ . واهتزّت الأرضُ . بِجِبَالِهَا . وهوى البِناءُ . فَقِفْ . صامدا . وقلْ . في صَمْتٍ . وفي جَلَدٍ . إنّي هنا .

هَمْسٌ

هَبَّ نسيمٌ . وأنا على سفح الجبلِ . أطُوف بالوادي . وأهل الرَّبع نيامٌ . فتعطّرتُ به . وفتحتُ جوارحي . طالبا . هل من مزيدٍ . وغَمَرَتْني رائحةٌ . حَرّكتْ سواكني . فنقلَتْني مما كنتُ فيه . وأخذتْ تَجرُّني . حتى ظننتُ أنّني . أُحْيِي زمنا مضى . وأمعنتُ في الرّحلة . متخطّيًا لحواجزي . متساميًا . كأنّ الجسم قد خَفَّ مِنّي . وإذا أنا . كَحُلْمٍ شاردٍ . أرْفُلُ في حُلَلٍ . فعرفتُ أنيّ صادق .

طائرٌ يَرُوقُهُ البحرُ . وطائرٌ يَحْسُدُالسَّمكَةَ . وهي تَسبحُ . وتقولُ . مَنْ لِي بمجدٍ . أو بسحرٍ . أو بِقَدَرٍ . يأخذني . من الماء . إلى عنانِ السّماء . فيَهْوِي الطائرُ . بَرْقًا صاعقًا . ومن أعماقِ البحرِ . يأخذها . ويُحلّقُ عاليًا . ومُفاخرا . قَنْصًا شهيّا .

خَلْوتي . كِدتُ أخافُك . خلوتي . لولا أنني . أحببتُ ذاتي . منذ أحببتُ . خلوتي . منذ أسرَّتْ لي خلوتي . منذ قالت لي في عُزلة . للنَّعيم لذّةٌ . وفي الحِرمَانِ لذّاتٌ .

أرتشف من الفنجان جُرعةً . جُرعةَ القهوةِ . حيثُ لا سُكَّرٌ . هكذا

أتعمَّدُ. أتقصَّدُ. كلُّ المرارةِ في بدايتها. ثم تنقشعُ. وقد أوصَوْني بترك السُّكَّرِ. ولستُ معتلاً ولكنْ روّضوني. وقالوا. هو أفْضَلُ. وقالوا. ستغدو القهوةُ. حلوةً. بلا سُكّرٍ. حينَ تتعوَّدُ. بها تَأنَسُ. وتُؤَالِفُ. تَرْكَ السّكّرِ. ففعلتُ. وها هي ذي. قهوتي. بلا سكّرٍ.

قالوا. ما أسرعَ أن تحبَّ إمرأةٌ. قال. إذن. ما أسرعَ أن تَنسَى النّساءُ. قالوا. ما أعجلَ أن يتحوّلَ رجلٌ. قال. ما أهونَ أن يتهافت الرّجال. فَتَحَاكموا. قالَ القيّمُ. إذا عَزَّ عند المرأة حبُّها. أمْسَكَتْ. حتّى يطول عِصامها. فإنْ هي أسْلَمَتْ. هَانَ سلامها. يخالونها تتهاوى. وهي لا تتهاوى. قال. دكّا لرجلٍ حديد. ليت أنَّهُ. من ضِلعها.

قالت. هذا يناديني. وذاك يصافِحُ. وثالثٌ من أعالي الشرُفاتِ. يُطِلُّ. مُحَابِيًا. وأخٌ له. على الممرّ الأسفلِ. يشيرُ مُغازلا. يراودني. وأنا كما كنتُ أنا. وأنا هنا. أدعو وأبتهلُ.

أفتح كتابا. أستلّ ورقةً. أقْضِمُ أطراف القلم. في انفعالٍ. في توتّرٍ. ثم أبحث عن مُعْجَمٍ. عن قاموسٍ. ولسان العَرَب. وقد هَدَأت الخواطر. فأقرأ متنًا. وشرحًا. وحاشيةً. ثم أقتفي صِلَةً. تتلوها الصِّلاتُ. وأعودُ إلى المقعدِ. إلى الأريكة. والقلبُ فَوْضَى. و النّفس سائحةٌ. وأسألُ. مَن أنَا. ثم أستدركُ. ولِمَ السّؤالُ.

على المكتب. نظرتُ إلى صورتي . وفي المرآة . تأمّلتُ صورتي. وعلى الهُويّة. وجوازِ السَّفَرِ. وفي المحافظ . رُحْتُ أقلّبُ. أقرُّ بهذه. و أستنكرُ هذه. ثم جمعتُها. وأعدتُ على المنضدة توزيعَها. وترتيبَهَا. وقلتُ . لو أختارُ من بينها. أوْلَو أسوّي بينها. وانتبهتُ إلى السّاعة . في معصمي. فوجدتهُا تتحرّكُ. فلَمْلَمْتُ ما تَنَاثَرَ. وطويتُهُ. طيّا رفيقًا.

وكنت أحبُّ الموسيقى. كنت أعْشَقُ الألحانَ. و اليومَ أريد أن أغنّيَ. فلا صوتي يطاوعني . ولا الألحانُ ترتادني . فأعود إلى الأنغام أسْمَعُهَا. فيأبَى السّمعُ. وتتمرَّدُ. على إرادتي أذُنِي .

العشقُ . إذا سَمَا عاليًا. العشق. إذا علا مسرعا . وإذا حلّق زاهيا. وارتقى صُعُدًا. فأشفقوا عليه. وعلّقُوا التمائم. وَاقْرَؤُوا لَهُ . سورةَ الإخلاصِ. وسورةَ الفَلَقِ.

من المكتب. خرجتُ إلى الصالون. ثم إلى الشُّرْفَة. دَخلتُ المطبخ. وأطْللتُ على الحديقةِ. ثم نَادَى المنادي . إلى البهوِ . ثم إلى غرفةٍ في الطابق العلويّ. فامتلأتُ بالفضاءِ الرَّحْبِ. وانقبَضَتْ نفسي فجأة. فَالضّيقُ ضيقُهَا. والرَّحابةُ من إحساسها. وما الكون إلا مرآة . على صفحاتها. تنعكس صورةٌ . هي صورةٌ من نفوسنا .

في الغابة . في الجوّ. وعلى متن البحار . أحسُّ بوحدتي. وبين أركان

المصحّة . حيث أسْتَشْفِي . في الْمَعْبَدِ . وبين أركان المَحَابس . هي عُزلتي . كأنه الهدوءُ . كأنه السّكونُ . لست بخائف . ولستُ بمُرتجف . وسألتُ عزلتي . عن هُويّتها . عن مَنْبَتِهَا . عن مَرتعها الفسيحِ . أمِنْ حَوْلِي هِيَ . أم مِن جُودِ مَنْ حولي . ومن حينٍ إلى حينٍ . في نفسي أراها . أحادثها . أكادُ أحبُّها . سِيَّانِ عندي اليومَ . الثَّرَى و القَمَرُ .

إشْمَامٌ

قالت لِيَ اللغة : أنتَ العاشقُ الجديدُ . لا أقولُ لكَ إلا ما قاله من قبلك ابن الحسن :

«اقعُدْ في ثُقْبِ الإبرة ولا تَبْرَحْ ، وإذا دَخل الخيطُ في الإبرة فلا تُمْسكهُ، وإذا خرج فلا تَمُدَّهُ، وافرحْ فإني أحبُّ الفرحانَ، وقُلْ لهم قَبَّلَني وَحْدي وَرَدَّكُمْ كُلَّكُمْ. فإذا جاؤوا معكَ قَبَّلْتُهم وَرَدَدْتُكَ ، وإذا تَخَلَّفُوا عَذَرْتُهُمْ ولُمْتُكَ، فرأيتُ الناس كُلُّهم بَرَاءٌ» .

قلتُ للّغة :

أيتها الضادُ. مفتاحُ قلبك بيَدي. وأزرارُ الفساتين. وسدرَةُ المُنتهَى. بيدي . أنت. بيدي. أسماؤُك التي قد خَطَّهَا القائلونَ. أوصافُك كما حرّفها المُداعبونَ. بيدي. أوتارُ قلبك. بالنَّغَمِ الحائرِ. بيدي . رِيشَةُ العَزْفِ. وآلةُ الدَّبْك. ومعْطَفُ العُودِ. وتسابيحُ القانونِ. بأناملي . مَفَاتِحُ الآهاتِ . ولذائذُ الأنينِ . بأصابعي. مَفَاتِنُ اللّفظ. لو أمْسكْتُ. ماقالوا بك شعرًا . ولو تمنّعتُ. ماسُمِعَ صوتٌ لشيطانِ الخليلِ. إيقاعك بيدي. وتفعيلاتُ الوَزنِ. وأساريرالضنَى .

أمواجُ البحـورِ. وصورةُ الفنِّ. وتمثـال الهَوَى. كلُّها في مقْبَضِـي. لـكِ الغاباتُ. فانسَرِحي. لكِ الأعشابُ. فتـوسَّدي. لكِ ما شئتِ. لكِ ما أشاءُ. أقمتُ سجنًا. وشيَّدتُ قبرا. ودَفَنْتُ بَنَاتك. لَـهَجَاتـكِ. دَفنتُ الحزنَ الذي. أحْبَبْتِـه رَوَّضْته. أقسَمْتِ يومًا. بالوفاءِ لَـهُ. بالعُمْرِ. كُلِّ العُمْرِ. مافـاتَ منهُ. وما هو آتْ. بـالصّبرِ. بالجَوَى. سَفّهتُ أحلامَك. وقَـهَرْتُـهُ. أنْـبَـتُّك زهرةً. وأيقظتـكِ ريمًا. ودفنتُـهُ. بأسمائك التي نَطقوا بها. وبأوصافـك التي غازلـوها. لأحفـرَنَّ مغارةً. بئـرًا سحيقًا. ولأدْفـنَـنَّ في غَيَابَاتـهَـا. عقاربَ التّاريـخِ. وأشيّـدَنَّ مقبرةً. شاهـقةً. عملاقـةً. ولأرْسُمَـنَّ رُخَـامَـةً. ولأكـتُـبَنَّ. هـذه مـدفنـة الـزَّمنْ. فَـلْـتَمُتْ. يا أيُّـها التاريخُ. ولتعشْ. يا خالـدًا. يا سرمـديَّ الكَـونْ.

أيتُهـا الكلمـهْ. أرْهقـتـكِ. صـوَّرتُ حبّك. ومشـاعـري. يافـتْـنـتي. ما حيلتي. أنا الظالمُ. ماحيلتي. أنا الظـالم. ما حيلتي. وأنا الـوفيُّ. فلَن أخونَ طبـائعي. ولن أغيـرَّ قبلتي. سأظلُّ دومًا. رائحـا أو غاديـًا. طولَ البحَـارِ. وعَـرْضَ الـمَدَى. لكِ ظالـمـًا. سأظلُّ. وإذا الدنيا تخايَلتْ. فكَفَـتْـكِ مظالمي. وأوجبَـتْـني طاعـةً. فلتعرفـي. أنّـي أنا. قـد خَيَّبَ الآمـالَ في ظُلمه. وإذا ما الظّلـمُ صاح مخاصمـًا. وأتاكِ بَـعْدي. واشتكَى. متأوّهًا. بأنـيـنـه. فَـتَبـتَّلـي. بـاسمِ الهَوَى. وترنَّـمي. باسم الجَوَى. وقُولـي. بِملْءِ جوانحي. بالأحلامِ. بالأرَقِ.

بالفاء بالجيمِ بالراء . بكلّ فجرٍ بـاسـمٍ . بالفجرِ مُفرداً . بالفَرد مَـجموعًا .
وبكلِّ رَنَّـةِ هَـاتِـفٍ . بـالموعد . بـالألواحِ . بـالخَطِّ الفـاتنِ . بالسِّحرِ
الحرامِ . قولي . ولا تَـتَـردَّدي . بُـوركْتَ لِـي . يـا ظالـمي . إني لِظُلْمِكَ
قد أتَيتُ شَفِيعـةً . لاتَسْتَهِـنْ بشفاعَـتِي . بُورِكْـتَ لي يا ظالـمِـي .

إِدْغَامٌ

في تجاعيد الوُجود الآتـي . سيُضاجِعُ التاريخُ لُغَتِي . سَتَحْمِلُ . ثم تَضَعُ . سَيكْبُرُ الوليدُ . ويَنْحَرِفُ . فَتُنَاجِيهِ .

أيها الشّعرُ . ما أنتَ إلا ذَكَرٌ . وكل الذّكورِ سَوَاسِيَهْ . أيها اللفظُ اللّعينُ . أوْهمتَني . أنّكَ مُفْرَدٌ . ألاَ سِوَاكَ يُمَاثِلُكْ . فإذا أنا . كالغرَّة المخدوعة . آمَنتُ أنكَ كاملٌ . قَدَّسْتُ لَفظكْ . ولَثَمت بالشَّفَةالحَرَّى . حُرُوفَكْ . وعلى الأوزانِ . رَقصتُ يومي وليلتي . ورحتُ أمْتَصُّ رحيقَ الكلماتْ . وأقولْ . هو البعثُ الجديدْ . هو الفَنُّ . هو الخُلودْ . تمثالٌ من الإغريقِ . كآلهةٍ . يَعْجِزُ الفنُّ عن نَحْتِهَا . لها يَسجد التّائهُ . لها . ولظُلمها . وتحت غَمَامها . يَستظلُّ فؤادٌ كَسِيحْ . وفي رحابها . تَحْتَمِي . تِلْكُمُ الأُنْثَى التي . كانت تَظُنُّ أن الرّجالْ . وكلَّ الرِّجالْ . قد عاشوا مرّةً . ثم مات جميعُهمْ . وما الدنيا . في هذه الأزمانِ . إلاّ . بأشباهِ الرّجالْ . مَلأى . فإذا أنا مخدوعةٌ . بالشعر . وما الشعرُ . ما هو إلاّ زائغٌ . ماكان إلا مُزَيَّفاً . دَوْسًا لمنثورٍ تَفَرَّطَ عِقْدُهُ . طَعْنًا للجواهرِ صُنِّعَتْ . بمَعسولِ الهَوَى . أقسمتُ بالشّعرِ . كم كان أحْرَى بِهِ .

ألاّ تَـزُوغَ أبصـارُهُ. ألا يخونَ العهـدَ. عهـدَ وفائـنا. عهـدَ الأمانـي.
يَتَـقَاطَرُ عطْـرُهَا. نتساقى أريجَـها. نموتُ ونحيا. بين نهرٍ وجدول.
تهادَتْ نفوسُنـا. كَ تَخَايُلِ الفردوسِ. أبديَّةَ الأزمانِ. خالدةَ الهَـنَاءْ.
شرقيّةَ الأنسامِ. صوفيَّةً. حتّى الجُنونْ. مجنـونـةً. كنتُ أنـا. مجنونـةً.
مازلتُ أنا. فَبِمَن أجَـنُّ أيا تُرى. أبالشّعرِ وقد تهتّك عِرْضُهُ. أم بالنّثرِ
و الجفـاءُ مَـجَازُهُ. يـا أيّها القـومُ. هُبُّـوا مَعي. وتمَـرَّدُوا. يـا أقـدارَ
الكونِ. تَـبَدَّدُوا. يا أسماءَ الشعرِ. تَـفَرَّقُوا. فلستُ قـائلةً نكمْ. مـاكنتُ
أقـولُـهُ. ولكنّي. سأهمس هـَمْسَةً. بها أهْـتكُ الأعـراضَ. سأقـولها.
سأبـوحُ بِسِـرّهَا. سأقولُها و اللسانُ مُـمَزَّقٌ. سأقـولُـهَا. والفـؤادُ
بِـدمَائِـهِ يَـتقطّعُ. سأقولُـها. ولـلأقدارِ مَغفـرةٌ. سأقولُـها. ولستُ
براجعـةٍ. سأقولُـهَا. ولستُ من اللّواتـي. أنوحُ وأنـدَمُ. سأقولُـها. كلُّ
الرجالِ سَوَاسـيـهْ. سأقولها. حتّى أنتَ يـا ولَـدي.

نَبْرَةٌ

. . . وإذا القائلُ هو القائلُ:

« . . . أنتَ صاحبي . فإذا لم تجدني فاطلُبني عندأشدّهِمْ عليَّ تمرُّدًا . وإذا وَجَدْتَني فلا تَعْصِه . وإن لم تجدني فاضربه بالسيف ولا تَقْتُلْهُ فأطالبَكَ به وَخَلِّ بيني وبينك . ولا تخلِّ بيني وبين الناس . وخاصِمني . وتوكَّلْ لهم عليَّ . فإذا أعطيتُك ما تريد فاجعلْه قُرْبانًا للنار . وقف في ظلِّ فقيرٍ من الفقراء . فَسَلْهُ أن يَسْأَلَني . ولا تَسْأَلْني أنتَ فَأَمْنَعَ غَيْرَكَ بمسألتِكَ فتكونَ ضِدًّا لي وَأَخْذُلَكَ » .

فناديتُ لغتي . زفرةٌ جاءت إلى القلبِ . زفرةٌ كالسّاحِرَهْ . أنينُها الحُلمُ . والذّاكرهْ . إيه . يَاذاكرَهْ . وأنا القادرُ . لَيْلاً ونهاراً . أنا القادرُ . بسائطُ العُمْرِ في مَفْرَشي . و المكانُ القَصِيُّ يا أيها الناسُ . ألا فقولوا . كما قال الذي قال . أنا العاشقُ . أنا الوَجدُ . أنا الزَّمَنُ . أنا الرّوحُ متّحدًا . أنا الحاضرُ . أنا الذي . على غير أهله كَتَمُوهُ . حَرَّمُوهُ . أنا العشق المُبَاحْ . أنا الزّمنُ المباحْ . أنا الخالصُ من دون العبادْ . القلبُ تغريدٌ ومرْجَلُ . يشدُو . عن شوقِهِ لا يَرْحَلُ . وبسائطُ الخضراءِ . في وجدِهِ .

تَـهيمُ وَتَرْ فَـلُ . ونعيمُها . وضفائرُ زَهْوِهَـا . تَبْني البلابلُ أيْكَهَا . لتُقيمَ يـومًا . لتعـودَ دهـرًا . وكأنها عن ريـاضِ الوجـد لا تَـرْحَلُ . و الفجـرُ وَضَّـاءٌ . كأن شُعَاعَهُ . سَوَّاحـةٌ . تَـتَهَلَّـلُ . هَـلاَّ أبَـنْتَ القولَ . أمْ هَـلاَّ جَلَـوْتَـهُ . أيـا قلبُ . لا ظَمئَتْ . جـداولُ الأنهارِ حولَـكَ . ولا أنتَ . بخالص شَهْـدهَا . حَتَّى الثُّـمَالَـة . تَـتَصَبَّبُ . تنسـابُ مَـيَّاسًا . تتسلَّلُ . متهاديا عشْـقًا فُـرَاتًـا . ومغنـيًّا نشيدَ عودتنَا . فإلى مَـتَى . هاذي الرُّبوعُ . تتباعَـدُ . وإلى متى . هاذي القلوبُ . بـرضَاب شَـدْوكَ تتقطَّـعُ . وشهوةُ الذكرى . لقلب مُـقْفـرِ . والشموعُ . تُؤَاكِلُ الشُّهْبَ لُـعَابًـا . ونارٌ تَـقذفُ الفتائـلَ حِـمَمًـا . وتهَـلَّلَ النَّخلُ . وارفَ الظّلِّ . وسرُّ الكون حـرْقَةٌ . تطوي حرقـةً . ويهتفُ الهاتفُ . لتدخلوا الأفُـقَ الـرّحبَ . مخُضَّبينَ . غيرَ خـائفينَ . والفتـحُ القـريبُ . وكلّ شيء مُـرَتَّبٌ . مُنَـضَّدٌ . مُـوَقَّـعٌ تَـفْصيلاً . فإن أنا متُّ . فَـسُـبَّني . وإذا رحلتُ فنادني . تُعَانـقُ الرّوحُ صَليَّـهَـا . والطُّهْـرُ أوْرَقَ . والمياهُ جَـوَادبٌ . و النهـرُ أتُّـونٌ ومرْجَلُـهُ الـدَّمُ . وتـرتـوي النفسُ فِـداءً . ومَـوجُ البراري . رِمـالٌ كـالجواري . لـمـثلها . عَـنَّت الـذّكرَى . وَدَاءُ الـوَجد نسْـيَانٌ يزولُ . أرَوّضُ العشقَ ألوانًـا . وتَسْكُنُ النَّفْسُ . والقلبُ طائعُها . إني أنا الساكبُ . فافتَحْ لِـيَدي . ثغرَ الشَّـرابِ . واصْبرْ على جُرعَـة . واكفُـرْ بالّذي سكَـنَكْ . وافْـزَعْ . وقلْ . بـاسم الكـواكبِ . دُجَـاهَـا اللّيلُ . ونـورٌ واجِفٌ صَمَـدُ .

إمالةٌ

أيتها الفصحى : سعيدٌ . وبحبّك أكثرْ . أعطيتُ . ولكنْ لك أكثرْ . في البدء كانت كلمةٌ وأكثرْ . واليومَ أكثرْ وأكثرْ . عانقيني . دثّريني . صَوّري على جَسَدي . رسومَ اللّفظ . وَوَشّحيه . بلوحات فنّك . ثمّ أرْسِلي . على معاطفي . وبين جوانحي . خمائلَ لَيْلك . إنّني . مَلَكْتُك نفسي وأكثرْ . أعانق شوقا . فإلى غيومك رحلتي . وإلى محيطك مَلجئي . طريقي إليك مفازةٌ . بها الأشواكُ تَلْسَعني . عهدي إليك . غاضبة أو راضية . لبيكَ أيُّهَا التَّعَبُ . لبّيكَ لبّيكَ . يا أيها اللّهبُ . دَعيني ونثرَ العُقود . أنا حرٌّ . وحرّةٌ كلماتي . كلُّ قَيد بجُرْحه . وكلُّ جُرْحٍ بنَبْضه . فَمَتَى النِّزَالُ . فالمَرْكَحُ جاهزٌ . وكذا الأبطالُ . والأضواءُ . والقادمونَ ليَنْظرُوا . مهرجانَ اللفظ جابُوا صوبَهُ . يعانقون الوزنَ . والإيقاعُ يُرْقصهم . إلاّ اليَتَامَى . هاتوا اليَتَامَى . دُرَرُ الألفاظ لها تتهادَى . نَثْرًا وألوانُه شتَّى . كما صاغ صائغ . أداعبُ الأوراقَ . أنا اللاّعبُ . أحرّكُ الأحجارَ . كأنها العاجُ . من رُخٍّ ومن مَلِك . وهاذي الأميرةُ . تموتُ وتحيا . والبيادقُ حولها . تطوفُ بفارسِ الشّطرنجِ . حتى تُذيبَه . لتقولَ عندئذٍ . كِشٌ ومَاتَ . فإنْ تحيا . فَبِإمْرَتي . وإن تلهو .

فبلعبتي . وإن أنتَ أمسكتَ العنانَ . فقلْ لنا . أيُّ الفوارسِ . ذاكَ الذّي . غاباتُهُ العُشبُ . أم هذا الذي للَفْظِه ظالمٌ . طَوَّفَتْ . فَلْتَقْرَؤُوا . باسم الدّعاء . صَلاَ تَهَا . وَسُهَادَهَا . نهارُهَا الليلُ . وبعضُ أسمائِهَا . إلى العدالة . ومملكةالعشق . مطلوبةٌ . وَمَنْ غَيْري . أنا الطالبُ . أنا الطالبُ . فاسألي العَرَّافَ عَنَّا . ثُمَّ قولي . إنها الأقدارُ فينا . ربّةٌ تلهو وأفلاكٌ تدورْ . و الّذي نفسي بلاَهَا . والّذي عَنَّا يَغيبْ . أنَّ ذَا الرُّوحَ مَلاَكٌ . أنّ ذا طيفٌ حبيبْ . عائدٌ يوما يُغنّي . سائحًا بين الدُّرُوبْ . في رياضِ الأُفْقِ يَدعو . ويُنادي . ويؤوبْ . هو ذا الحُلْمُ المُؤَجَّلْ . هو ذا الماءُ الزُّلاَلْ . هو ذا الأيكُ الفريدْ . هو ذا الحبُّ العنيدْ . فهل أتاكَ حديثُ القِلاعْ . شامخاتٍ . صامداتْ . أقفالُها الصَّلْدُ . و الرواسي الشاهقاتْ . الصّخرُ أوّلُهُ . و البرجُ قبلتُهُ . وفُتَاتُ القلوبِ . حبَّاتٌ على الأرض . طيورٌ عابراتْ . وإذا البرقُ هَفَا . وإذا اللحظُ مداذْ . رجفةُ الأقلامِ بياضٌ ناصعٌ . وفتحٌ قريبْ . وإذا المَحَاجبُ ترتوي . وإذا العساكرُ غازياتْ . و الحِصنُ مرتعش . والأسوارُ . و السهمُ فاترٌ . و الأقفالُ هاويةٌ . و النفس دَعِيَّةٌ . والعصيانُ نَجِيُّهَا . والطّيرُ مالكُهُ . نسورٌ خاطفاتْ . شعاعٌ . والجمرُ مقْبَضُهُ اليدُ . والأناملُ باسماتْ . ولذّةُ اللّحظِ . قلوبٌ واجفاتْ . والأنَا فوق الأنا . والشعر فاتن اللفظ و المعاصم واثقاتْ . و الإسم مكرَّمٌ . و المَحْتِدُ واسماتٍ عامداتٍ

زاهياتْ . والكل مزدحم و الضمائر في الأنا . هو الأنا . فلتكوني وليكنْ . حرفٌ و حرفٌ . حيٌّ لا يموتْ . أجهشتْ باللفظ صاحَتْ : أقولُ فأندَمُ . ولا أبوحُ . فيَشتكِي الوَجَعُ . لَيْلِي سُهَادٌ . والنهارُ . كَمَنْ سَلاَ . وكَمَنْ شَدَا . سَلُوا قلبي غَدَاةً . سوا قلبي أصيلاَ . لا تسألوني . ولا تفعلوا . فلو سألتم . سَأكْذِبُ . ولو فعلتم . سَأكْرَهُ . أن أقولَ لكم . ما قد قلتُهُ . وعرفتُهُ . وطويتُ صفحاتِ الهَوَى . ونسيتُ . أنْ أقولَ . إنّي عربيّةٌ . عربيةٌ . عربيةٌ .

[illegible] (GOAL)

تَضْمِينٌ

جَلَسْتُ. وتَسبَّتُّ في الرّمْلِ الذهبيّ. بأظافري. وأقمتُ عِمادًا. ونصبتُ شَمْسِيَّتِي. كما كان يَفعلُ أبي. وجَدّي. في غابرِ الأزمان. في الصحراء. في شواطىء العُشْبِ. وفي المراعي. وعلى ضفافِ العيونِ. جلستُ. ونَصبتُ. وانتظرتُ كما انتظر موسى. قبل أن تجيء إحداهما. نصبتُ واستلقيتُ. وقلتُ للشّمسِ: عليكِ. بمفرشي أبْدِلِي منّي الغلافَ. فأبي أسمرُ. وجدّي أسمرُ. والقارّة السمراءُ أمّي وجدتي. أبْدِلي جِلْدَتي. اصْبغِيهَا. أعْرابيَّةً. ذاتَ أنوارٍ إذا انكشفَتْ. حُمَّ الغَمَامُ. وضاع لُبّي. وبعضُ قلبي. وتاهت الأنظارُ. ونادَى الطّيفُ: يا أسمرُ يا أسمر. هل يأمَنُ البحرَ راكبٌ. هل يَنْزِلُ النهرَ إلاّ مغامرٌ هل يَعْلو الجبالَ إلا مكابرٌ. بُحورُ النفس مظلمةٌ. أنهارُ القلبِ غائمةٌ. جداول الخضراء تَبْتَسِمُ. شواطىءُ الأنس فيها جَنَّاتٌ من الهَوَى. فاتنةُ الرياضِ. سَوَّاحَةٌ. تُغْرِي. مِنْ بَنِي عُذْرةَ جدّي. من قَيْسٍ. من ديارِ الرَّبْعِ. عَشِقتُ نفسي يومَ عشقتُ كلماتي. يَا فُصْحَايَ. هذا غِناءٌ. تَهْوَى. أهيمُ بحبّها. تختالُ. أصبو بلهوِها. بغرامها. في مَرتع اللفظ.

في مَغـازل اللحنِ. في كل أغـنـيَّـةٍ. هـي نفسي. هي نفسي. واضحُ اللَّحن. أعْـزِفُ. أقودُ التَّخْتَ. وأمضي. شاديا. شـاديا. لك يا عربيّةً. أيتها الفصحى. لساني وجنـاني. أهديتُك روحي. وهل قليلٌ. أهديتُك أنفـاسي. ذراعي ومَبْسَمي. وهلْ قليلٌ. مـا كنتُ أحْسَبُ. أنْ قـد غَفَلْت. ولقد نَسيت. ألفاظُ الآخرينَ. علامةُ عَيّهِمْ. علامةُ جنْسهِمْ. كَفّي. ذراعي. صَدْري وأنَـاملـي. وكلُّ ما فـي جَسَدي. شَـهَادَةُ حُـبّي. و تُـرجمانُ عـواطفي. لا شيء في جسـدي. لا شيء في لُغتي. يُـحَرّكُـهُ الهَوَى. ما لم يكن. مِـنّي الفؤادُ. هائمـًا. بالحبّ قـد نَبَضَا. الجسمُ حَـمـّالُ لَـذّات بلا أملٍ. و القلبُ إذا أحبَّ. هَامَ في عشْقـه الجَسَدُ. نَـفْسي فلتستجبْ. يا لفظُ. أنّـى مُنْيَـتي. بانَتْ. فجادَتْ. ثم هامتْ. فتشرَّبتْ صَفْوَ الرحيق. رَحيقهَـا. فَـلْتَصْفُ لـي. يا مَشْـرَبي. ولتقلْ: هو الفجرُ بازغًا. هـو ذَا مَشْـرَبُ الألفاظ عند سُبَاتهَـا. أجْهَشَتْ بالبَـوْحِ. كنجمٍ يتوارى. بين الكلمات يَسْتَـتـرُ. فَيَلَذُّ لـيَ الحديثُ. من عَبَـثِ الـولَيـد. ثـم أسَّـاءَلُ: حَالـي كحـالـكَ. أنتَ لي. وأنَالَـكْ. الخَـلـقُ كَلمَـهْ. و الوجـدُ كلمـهْ. و الـملـبَسُ والألـوانُ. وحركاتُ اليـد. كلمهْ. و اللفظـةُ المكتومـةُ. و التي تصل إلى الشفـاه ثم لا تُنطَـقُ. وقـولُنـا: إني مُـمسكٌ. كقـولنـا: لا أعرفُ. وإطـلالةُ الـوجه. وانسيابُ اللّحظ. كلمهْ. كـأنّها العينُ تَغْـمزُ.

وهـي لا تَغــمزُ. و الأنـامل اليمـنى على أظـافر اليسرى. و السـاعةُ على الـمِعْصَم تُطِلُّ من تُــخُـومِ الثّوبِ. و العينُ تَسترقُ الـوقتَ. و الجيدُ إذ ينحني إلى الكَتِف. وابتسـامةٌ يَقْطعهـا الخَـفَقَانُ. ووَجنـةٌ يتوالَـى عليهـا شحـوبٌ واحمرارٌ. وعينٌ تَشْــرَقُ لَـتَكَادُ تَـنْدَمِعُ. و الجَفْـنُ مِظَلَّـةٌ. وفَراديسُ النعيمِ. جادت بِخِلٍّ يَقرأ الكفَّ. ويُصغي إلى النَّمْلِ : بكلِّ هذا السحرِ. أسَــرْتَـنِي. سَلَبْتَنِي. كفراشةٍ. إلى النـور. أنَّى صَـرَفْتَ السّيرَ. إلى كَبِـدِ السّماءِ. في الفضـاءِ الرَّحْبِ. قد غزوتَ الكـونَ. حَتَّى مَلكتَـهُ. تُـحرِّرُ القَيـدَ. سُودًا وبيضًا. إلى السماءِ مَعْــرِجُـنَا. إلى الشهـادةِ نَطلبُهَا. شهيقًـا زَافِــرًا. سبيّــة الوجــدِ. في المعشــوقِ خـالصـةٌ. ومع الحبيبِ خُلودُهَـا.

إفْصَاحٌ

كلما سمعت شعرا أو مَشيتُ راجلاً، كلما أنشدت أغنيَّةً أو أكلتُ خبزا. كلما ارتديتُ ثوبا أو احتسيتُ شرابا. كلما وضعت على ناظري مِجْهَرًا. رأيتُ اللغةَ. حَضَرَتْني اللغةُ. فاجأتْني. أفسدَتْ مِشْيتي وغنائي. نَغَّصَتْ خُبْزي وشرابي. أيقظَتْني بالكونِ بالنّاسِ بالغافلين عنها بالهَاتكينَ أعْراضَهَا.

رأيتُها مع نوح. رأيتُ مَرْكَبَهُ. تَصوّرْتُهُ يَخْتًا ملكيًا. في المزاد العلنيّ. يُباع ويُشْتَرَى. بأغْلَى ثمنٍ. فاقتنيْتُهُ. وَرَصفْتُ على مدارجه، من قواميس الكلماتِ، من كل زوجين. حقيقةً ومجازًا. وفاضَ التنّور: اركبي معي أيتها اللّغة سأحميك...

يا كلَّ حاضري أيَا قَدَري... أشكوكَ قسوةَ العَيّ. فَمَنْ سواكَ يَبعثُ الدِّفءَ في أوْصَالي. في الرأس سؤالٌ. تَتَشَظَّى الذاكرةْ. فمن يَغسل عن قلبي التعبْ. أسْبح في بِرْكَةِ الجسدْ. أرْسلُ إليكَ شُعْلَةً من دَمي. وشَهْقَةً نَسيتَهَا ذاتَ مساء على صدري.

جاءني بها وَدَعَاهَا. فأتَتْني. مُتَخَفِّيَةً. تريدُ فُجَاءتي.

هاتَفَتْ. بِيَد المِرْنَاة. فَدَوتْ صورةٌ. تَنْحَسِرُ الشِّرْيَانَ. كنتُ أرى الأيّامَ. أعُدُّهَا ليلاً بليلٍ. تَطوي نزيفَهُ فأبْتَسِمُ. و اليومَ ها أنا أبتسمُ.

لا تُطِلْ بعد اليومِ قصائدكْ. فخيرُ السِّحر نَفثةٌ. معقودةٌ. لا تَملكُ لها. ذاتُ الهَوَى. أنْ تتعوّذَا. رُشَّهَا رذاذًا. مُمطرًا. متهاطلا. واختِمْ عليها بَصْمَةً. أمّيَّةً. هي لغة الهوى. عاريةَ الحروف. و الحركاتْ. و الكلماتْ. فَهَمْهِمْ بها. متلكِّئًا. والْعَنْ دُعَاةَ الشعرِ. وبعضَ الفصحاءْ.

كُنْ كطيفكَ هاويًا. وكَظلّكَ. لا تَبتعدْ. لاَدغًا. هاجرًا. هبَات بلا نَدَمٍ. صَمتٌ خَشُوعٌ و الصَّدْرُ أوّاهُ. و الدمعُ مِن مُقلتي. في نشوةٍ وَهَّاجَة. في غمرة الأشجان ودَّعتُها. لُغَتي. وفي غفوةٍ كَصَفيرِ همسٍ وكنور السَّمعِ أحتاجُها أدْعُو لها. كالعبد ينادي و ينادي: ألا أيها المولَى بربّ الشعرِ و للحبِّ آلهةٌ هل من طيف يُجدّد لي عهدًا و عهدًا ويقول لي: ما نارُ لفظٍ يتَجَارحُ يَتَقَاطَرُ. خذني إلى حضْنِ الكلمات. لادفءَ في غيرِه. ملءَ الجُفونِ. وفي الأحلامِ. أحْيَا وَتَحْيَا. لنا الوفاءُ. لنا الدنيا. وكل السماءْ.

في الكونِ مسالكُ. لا يَلِجُهَا إلا واحدٌ. إلا مرّةً. إلا ساعةً. ليس يدري متى هِيَ تأتي. إنْ كانت ستأتي. فقد ينقضي العُمْرُ ولا تأتي. و الحمدُ ألفٌ يومَ تأتي.

بَثٌّ

اصْطفّتِ الجماهيرُ واستطالت الطوابيرُ. تـزاحموا. ثم دخلوا. التفُّوا بالحَلَبَـةأدواراً. تقول: كعبةٌ. ضجيجُ. صراخٌ. أصواتٌ كالاستنفارِ. دقّتِ النواقيسُ. صَعِدَ المتبـارزانِ. على الحَلَبَـةِ: الحبُّ و اللغةُ. تعاقَبَـتِ الجولاتْ. قال: أثمرتُ عشقا. قالت: وضعتُ شعراً.

مَـنْ زارعُ الورد. من صانع البهاءْ. مَـنْ خالـقُ الفِـتنْ؟
لولايَ ما كنتَ تحيا. ماكان شاعرْ.

لولايَ ما كان سحرٌ.

بعد نزول المطر. بذرٌ. نباتٌ. زروع. إثمارٌ ومَـخَاصِبُ. حصادٌ ومَغَـانِمُ. زال الجفـاف واختفى الجَدْبُ وعـاد المطـر يسـاقي الأرض فترتوي.

لقـد ألمّ الطـائفُ وذهب بها ذهب حتـى أضنـاني وأنهك قُـوايَ وأنـا الضعيفة في نفسي. أقول عِـبَـرًا. أسمع صوتكَ في السماء يوقظ أحلامي. ذاهلـةً. صامتـةً. حائـرهْ.

حين تَسْكُبُ في مسمعي كلماتِ الدّفء أسارع إلى المهد الوثير فأراكَ معي نركض على صفحات المطر فَيَنْبُتُ البحرُ أحباقًا فتبتسم المرآةُ ويضحك الكتاب ويتأوّه الوثيرُ.

ستتشكل كلماتي حين تمسح بيديكَ جبيني وتنثر نظراتكَ على جسدي نَدًى وإلهامًا.

فَلَمْ يكن كتابٌ ككتابها. ولم يكن حبٌّ كحبّها. وشاع الخبرُ بين الأقوامْ. فصارتْ مَضربَ الأمثالْ فحسدها العقلاءْ وتمنوا هذيانها. وكان أوّلَ الحاسدين كبيرُ العقلاءْ وقد أنكر نفسَهُ وعَقْلَ العقلاءْ.

اليوم آمنتُ أن الكلام يقتلني إذا ما اللفظُ قَلاني. أوْ هَجَرْ. اليومَ أتلو على جميلٍ وعلى المجنون وليْلاهُ و البُثَيْنات فاتحةً. وغدًا. باكرا. سأرحل إلى كلماتي. و سَأَرْكَنُ منها في زاويةٍ. وسأدعو شاهدا عَدْلاً. وسأتلو على الكرسيّ خطابا:

الحبُّ أغنيّةٌ. يجمعها قلبٌ تائهٌ. يضع لَحْنَهَا نبضٌ قاهرٌ. يؤدّي أنغامَها صوتٌ عاشق. يُروِّض تَخْتَهَا معلّمٌ ماهرٌ. ثم يُفشي سرَّها لفظٌ ماكر.

عشقتُ الحسناءَ فوهبتُها كلماتي.

عشقتُ اللغةَ فوهبتُها حُبّي وهُيامي.

ضاعَ حبّي يوم ضاعت كلماتي.

رَنِيـنٌ

ذاتُ الأشعـار تكلّمتْ فجـرا وطلبتْ مـن جنـود الليل أن يَسكتـوا فـأصغَى لها الجمع ثم انحنوا فقالت مخاطبةً أنيسهـا : ما الذي تريدُهُ منّي، مالذي جئتَ تطلبُـه. فالكونُ أرحبُ من فضائي. ويـدُكَ الطُّولىَ. والكلُّ حولك : يُـحَلّقُونْ. ويتسابقـونْ. ولك يُغَنُّـونْ. نشيـدَ الحرب وأشعار الجنـونْ. إلاّ أنـا. وأنتَ على العـرش كمالكِ الأرض و السماءْ. تـوزّعُ صكوكَ الغفرانْ. وتُعطي الجوازاتْ. وتَـخلع الثوب على من تشاءْ. ثم تُوقدُ النـارْ. وتَقتطعُ الشعورْ. فَتَـنْثُرُهَا سَعيرًا فالدنيـا بَخُورْ. و العطرُ مِـخْدَارْ. ويحترق العـود ويتفاوح المسكُ ويلتـذّ الخليلْ. وعنـدهـا يهلّل الحفلُ من حـولكَ وتتقاطع الأذرع على النُّحُـورْ. فينحنـي الجيدُ وتصغِي الـمَسَامع و القلبُ يَتَـهَـدَّجُ و الأنامـل تَزْرُقُ. خوفٌ و حرقةٌ وانتظارْ. والكلُّ غـائظٌ و الكلّ مَغيظٌ و الكـلّ يَستبصرُ القضـاءْ. صـولـةٌ منكَ يـا عـاصرَ القلوبْ. يـانـافثَ الأرواحْ. وتقف أنتَ سلطـانًا عتيـدًا. يصرّح بالأحكـامْ. وتقف أنتَ جبّارًا زعـوقًا. يَـعْصف بالحسـانْ. ويطولُ بين وقفتـكَ و الكـلامْ. سكوتٌ وسكـوتْ. كأنها النَّبْلُ تصيب القلـوبْ. وتقـول كل لاهثةٍ. وتقـول دون أن تقـولْ. وأقولْ. ألاَ إنكَ الـحكَمُ.

ليتك لا تـعْـدُلُ. وكيف يَـعْـدُلُ الحَـكَـمُ. إني أنـا الأنثى التي لم تَـفُـزْ بالسّبق ولا حَطّمتْ رقما بالقياسْ. فكيف لي بـالفلاح أطْـلُـبُهُ. وكيف لي بتـاج العرش أحملُـهُ. كنْ ظالما وخـذني . كن ساحـرًا. كنْ سليمانْ . كن قـاهرا لمن سَـبَـقُوا. كن مُنصفا للتي تَلْعَـنُ العَـدْلَ وخذ بيـدي . كن جائرا. وكن لي فأنتَ أنتَ العادلُ.

لـو كنـتُ أعْـدلُ مـا عَشقتُ . لـو كنتُ مُنْصفًـا مـا جلستُ على العرشِ. فأنا بجَوْرِ الحُبّ أحتكمُ. وأنا من العدلِ أنتصفُ. فالعدلُ عدلي. وحكمُ السماءْ. ولا يعرف العشقَ إلاّ من ظَلَمْ . إني قـد حكَمْتُ عليك وحكمي نافذٌ. وحكمي قاطعٌ. لا يُسْتأنـفُ. و الحاكمونَ و القُـضـاةُ و الـمُرافعونَ في مملكـة العشقِ و الذين بقـانون السماء يَنطقـونْ. إليك سيقـولونْ . إني قد حكمتُ وحكمي قـاطعٌ. لايُستـأنفُ. و الهائمـون في ربوع الوجـد وحُماةُ العرين. وأهل الرباط. وحـرّاسُ الثغورِ سيَتْلُونَ ظَهيرَ الحكمِ وحيثيّـاتِ القَطْعِ. وسيقـولـونَ هذه استقالتُـنا من الشعـرِ. وهـذه إجـازتنا. من حقـوق الكلمات. فكـلامنـا اليـومَ كلامٌ جـديـدْ. ومُعْجَمُنَا اليوم قاموسٌ جديدْ. سلطانُ الشوق كعشاق المرايا. وأصوات الـمُحبّينَ كرسـائل المراودينَ. من فاتنينَ . ومفتـونينَ . حولَـك قـامت ملامح الجريمـهْ. ومنك قد صَـدَرَتْ. فيالقُ التهمـة. وعليك حيثياتُ الإدانـهْ. عنـكِ قـد حُـرِّمَتْ ظـروفُ التخفيـفْ. إلى قضـاء الحبّ

فاسْتَسْلِمي. عليكِ قد حكَمُوا . حبًّا مؤبَّدًا. فادخلي القلعةَ وجُرّي أغلالَ قيدٍ يحوطُ بك. إلى الأذقانِ. وعلى السمَعَاصِمِ. و الخِصرُ مُسَلسلٌ . وقُيّدَتْ الخُطَى. وتُحْسَبُ الأنفاسُ. أفلا تتبتّلينْ. أفلا تتأوّهينْ. لا يَعْرِفُ الحبَّ إلا من ظُلِمْ. ولا يَدخلُ الجنّةَ إلا من بكَى

حَـرْفٌ

الكلامُ اسم وفعلٌ وحرفٌ جاء لمعنًى وحرفٌ ليس كسائر الحروف وحرفٌ يُدركه الحسُّ وحرف لا تؤديه الصّفهْ. في الليلة البَدْراء تغيبُ الكلماتْ. أنا الحرف الذي فرّ من قيد الكَلِمْ. ريشة ذهبيّةٌ. تَرسم ألفاظي بألوان الشوق، على صفحات الألَمْ. تُقَيّدُ أنفاسي ثم تُطْلقُهَا. كما الآهات. في الهواء الطّلْق. على سجلاّت الألقْ. نَادني أرْكَبْ إليكَ. نادني. أيا حُسْني أيا مُنْيَتي. أشدوكَ أغْنيَّةً. أراقصُ إيقاعًا يَخْطَفُ الأبصارَ برقًا. فأنا الصوتُ إذا الصوتُ هَمَسْ. نادني وَاصْرُخْ. فزمانُ اللّفظ وَلّى واحْتَجَبْ. لكَ الروحُ. لكَ الجسدُ العتيقُ. لك منّي ما يَنْبُضُ وما قد سكَتْ. هُزّني بِصياحِ صَوْتكَ. فأنا الفجرُ إذا الليلُ غَسَقْ. اسْكُبِ السَّيلَ على جَسَدي لِتَسْتَلَّ من غِمْدِيَ سيف الأرَقْ. وتَغْسِلَ أوْتَاريَ العَطْشَى. وتُرْسِلَني. طيرا يُحَلّقُ في الأفقْ. خُذْني أنا الطائرُ. خذني على الرّبوة الخضراء. ضُمّني واصْرُرْ. لا تبتعدْ عنّي. وليكنْ لَيْلُكَ كَأسي. إني على سَفَرٍ. في ليلة الغَسَقْ. إنيّ إلى رحلة من وراء الشّفقْ.

عندما عرفتُكَ كان مِنْ حولي فَراغْ . كالهُـوَّةِ السَّحيقِ . أتجلّى على حافة من بئرٍ . أمُـدُّ يَـدِي . أنْسَاحُ إلى الأعماقْ . كأني إلى الخلودْ . بلا قرارْ . بلا زمنْ . بلا حدودْ . مَـدَدْتُ يـدي . أمسكتَـني من ذراعي . تعلّقتُ بجسمكَ . أحببتُ نجدتَـكْ . هممتُ بِمَـلْءِ الفراغْ . وحدثتُ نفسـي . بغير ما في نفسي . حتّى انطمَسَ الفـراغْ . جاؤُوا إلى البئـرِ السحيقْ . ردمـوها . فارتـدَمَتْ . على الأرضِ من جديـدٍ . وضعتُ أقدامي . صلبةً وجدتُّـها . صخريّةً . شكرا لكَ أبا المكارم . شكرا . قد امتلأ الفراغْ . شكرا وحمدًا . يا مُوقِـدَ الأنوارِ . يـامطفىءَ الشموعْ . يامَـالِـىءَ الفراغْ .

ذاتَ سَفَرٍ طرقتُ بابَ الكبرياءْ . توسلتُ ذاتَ ألـمٍ مناجيا : كيف الكبريـاءْ ؟ من وراء الستارِ . ذاتَ بهجـةٍ . نَسيتُ الألمْ . قفلتُ راجعـا . وفي يدي . باقـةُ أزهارٍ . كأنها . أزهارُ عروسٍ . تخَضَّبتْ أشعـارُها . ليلةَ عُـرْسِهَا . بأوجـاعِ البهجةِ . وَحنَّـاءِ الألَـمْ . فهل تتـواصلُ الأرواحُ دونَ الأجساد بعد أن التحمتْ الأجسادْ؟ هو التألُّـهُ أو إيذانٌ بالوداعْ . فَبكَى السائـلُ .

كيف تستقرُّ النفوسُ على النفوسِ .

سُئِلَتْ الأفلاكُ فلم تُجبْ .

وسُئِلَ الإنسانُ فقال : إن سكَنَتْ .

ثم سُئِلَ أخْرَى فقال : إذا احتَدَمَتْ .

وَغَضِبَتْ من انتحالـه السَّمَاءْ .

فَسَألتْ الأفـلاكُ آدمَ فقالْ :

الساكنُ عبدٌ ، و المسكونُ عبدٌ ، و العَبدُ على العَبد .

وسَألتِ الأبـراجُ حـوَّاءَ فقـالتْ : إذا السـاكنُ مسكـونٌ فَـصَحْوٌ وَاسْتِسْقَاءْ .

وإذا السّاكنُ سَاكنٌ و المسكونُ مَسْكونٌ فموجٌ يَـمُـورْ .

فَـادْلَهَـمَّتْ السَّـمَاءُ حَتَّى الـرَّميمِ وَأطْبَـقَتِ الأفْـلاَكُ وَ أقْـفَلَتِ الأبراجُ واحتَـمَى حُـرَّاسُـهَا .

فقال الكاهنُ : إعصارٌ ناسفٌ .

وقال الراهبُ : عارضٌ مُـمطرٌ .

وقال الساحرُ : غيثٌ نافـعٌ .

وقال الساكن : رَجَّـةُ الـزَّلازِلَ .

وقال المسكونُ : بَـرْدٌ وَسَـلاَمْ .

سَمَاعٌ

حَدّثتْ ذاتُ الأشجان قالت : رأيتُ ليلةً في المنام أنيّ ــ ونساءً مثيلاتٍ ـ قد اجتمعنا حولَ آسر القلوب مُحَلّقَات ولم أكن قد انفردتُ به، فتذاكَرْنَا المحبّةَ وأوردت كلٌّ واحدةٍ ما حفظتْه . قالت الأولى : حقيقة المحبّة قيامُكَ مع محبوبكَ بخلع أوصافكَ. وقالت الأخرى : أنْ تتكلمَ كلامَ عاشقٍ فنيَ في عشقه وخرج عن أوصافه إلى المحبوب. وقالت الثالثةُ : ميلُكَ إلى الشيء بكلّيّتكَ ثم إيثارُكَ له على نفسك وروحك ومالكَ ثم موافَقتُكَ له سرًّا وجهرا، ثم علمُك بتقصيرك في حُبّه .

ثم انبرتْ من الجمع واحدةٌ كنّا نظنُّها كالخرساء ـ وكان الآسرُ يَرْقُبُ ــ فقالت : ما يسيطر على الوجدان من آية الميثاق حتى يكونَ الوجودُ للمحبوب. عبدٌ ذاهبٌ عن نفسه متّصل بذكر محبوبه ، قائمٌ بأداء حقوقه، ناظرٌ إليه بقلبه، أحْرَقَتْ قلبَه أنوارُ هويّته وصَفَا شُرْبُه من كأسِ وَجْده، فإنْ تكلّمَ فبالمحبوب، وإن نطق فَعَنِ المحبوبِ، وإن تحرّك فبأمْرِ المحبوبِ ، وإن سكن فَمَعَ المحبوبِ .

وهممتُ أن أتكلّمَ وخَشِيتُ، وأنا بين خوفٍ ورجاءٍ هَتف

الآسِـرُ وقال وكأننـا لم نكن خَالِـصَات : هـلاَّ كَـفَـفْـتُنَ عن المحبّـة لا تَـسْمَـعَهَا النّفوسُ فَـتَـدَّعِيَـهَا . المحبة هِـبَـةٌ لا يكتسبها العبد بالمنازلة وما لا يخضع للكسب يُـخشَى من المذاكرة فيه حتّى لا تطلبه النفس أو تدّعيَهُ .

فأفقتُ وشفـتـاي تردّدان : قد قال كـلَّ شيء .

ويـروَى أنّ ذاتَ الأشجان قـد أخذهـا في غَسَقِ الليل أرَقٌ ذهب لها بنصفه وإذ هي بين فكرٍ ومَنَامٍ تَـسَـلّل إليها بين الستائر طيفٌ قالت خِلتُه مَـوْلَـى السلامِ رسولَ الكلمات فـناجيـتُـه .

يا شاعرا قـد تغنَّـى بشعره الشعراءُ . يا ساحرا . ياقـاتلي . يا مالكا . قد تَـسَـلَّـى بظلـّه الأمراءُ . ياصَـائغا بـاللفظ أحلَـى الكلماتْ . يا نـاثرا عَـقدا فريـدا . يا نـاقشا . يـا ناحتـا . بين ألماسٍ وجُـمانْ . سأرتـادُ لكْ . سأنسابُ لكْ . وأذيـعُ يوما على المآذن . وأشقُّ الصّفـوفَ . و القائمينَ . وأدعو الجمعَ ومَنْ مَعِي . تُوبُـوا مَعِي . هذا مَلاَكُ الهائمينْ . وبَعدهـا يوما فيومًـا . ستَأتِـيـنِي . سيفُكَ الأرضُ . والخناجُـر تختفِي . و الشعرُ منكَ . مدحـورٌ . وأنا التي . ستَشـدُّ على مَعَاصِمكَ الـوثَاقَ . وعنـدها سأهمسُ لكْ . يافارسي . يا آسِـرِي . هذا جوادُكَ في يدي . حِصنُ الوَغَى . ومَرْمَى النّزالْ . عليـكَ بي . عليكَ بمن قد أسَـرَكْ . فإن كنتَ يومـا طاعـنًا . وإن جاءكَ الظّمأ . أو شَدَّكَ الوَجدُ إلى القتـالْ . فهاذي أنا . فيها النزالْ . وفيها الـمُـقَامْ . الشعـرُ بيتِي . و السّجـونُ قصـائدِي . وأنتَ هنـا سجـينُ

الكلمـاتْ. فـداكَ الـرُّوحُ تَزْهَـقُـهَا. فجراً. وُصبحًا. ومساءْ. و الرّوحُ منسلخٌ. والبرازخُ تنتقِي. و الحصنُ منفتحٌ. يثـوبُ بحكمِـه. ويطلبُ لـكْ. أن تُـعيدَ القتلَ دومًـا. يا قاتـلاً. يا زائرا. يـامقيما في أضْلُعِي. إنيّ فِداكَ وقد حكَمتُ عليكَ. إني فداكَ و الحكمُ حكمٌ مُؤَبَّـدٌ: أنكَ القاتلُ يوما. أنك القاتل دوما. إني فـداكَ وعلى المـآذنِ صيحتِي: غفرتُ لَـكْ. غفرتُ لَـكْ.

فَاصِلَةٌ

قالت : أنا اللغةُ يتكلمونني ولا أَبُثُّ أحدًا شكَاتي . أنا اللغةُ . أنا الأنثى . إنّى كَحَوَّاءَ تَشتدُّ وتُمعن في الشدّة . تُقاومُ نفسَها وتُبدي غيرَ ما تُضمرُ . تقولُ عنها أبيّةٌ نَافرٌ . تقولُ عنها فضيلةٌ خالصةٌ . يحادثها الشيطانُ فلا تَسْمَعُ . ويَتغافل عنها الأملاكُ فتدعوهم فيُخجِلُهم دعاؤُهَا . حتى إذا ما هفا حسُّها ورَقَّ منها الشّجى وخَفَقَ القلبُ نابضا مُتَدفقًا وَحَادَثَتْهَا النَّفْسُ على وَجَلٍ واشرأبَّ منها الجيدُ مُفَاتنًا وطالَ انتظارُها فلم تَدْرِ أساعيةٌ أم مطلوبةٌ أراغبَةٌ أم مَنْسيَّةٌ وجاءها اللَّحْظُ بهمسة ذَهَبَتْ شدّتُها كأنْ لم تكن وتسارعت منها الخُطَى تُسَابِقُ المناديَ وما هي إلا ومْضةُ البرقِ إذ تَتَكَشَّفُ، تتهاوَى، تُسْلِمُ النَّفْسَ وما بالنّفسِ ، تتعرَّى ولا يُخْجِلُهَا العُرْيُ . فما أسرعَ أن تَتَعَرَّى التي اشْتَدَّتْ واستمسكَتْ . ما أعْجَلَ أن تتكشّفَ ، تتهاوَى . وإذا تجلّ المغمورُ الذي كان على الأنثى فما أعْسَرَ أن يَحْتَجِبَ وما أبعد أن يَتَوارَى ، تَذهبُ الأزمان وتأتي الدهور وتتكاثف جِبال الأغطية وفي لحظةٍ ، في همسةٍ ، بغمزةِ الطّرف ـ إذا شاءَ سيّدُها ـ تَسيلُ الجبالُ و الأقنعةُ

وشَامِخُ الرّواسي كأنها الثّلجُ فَاجَأهُ لَهيبٌ شُوَاظٌ .

أيتها اللغة ، أسراري ومكامني ، ماذا فعلتِ بالذي قلتُ إليك، هل تلوتِه وهل رتّلتِ حرفَهُ ترتيلا أم هل قلتِ : أصابَه الشعرُ . ضُمّيه إلى صدرِك ضَمَّةً تُذيب مِدَادَهُ فيتسلّلُ إلى القلب الرفيق بين أحناء الدّفء الوديع مُطِلاً على الجَمْرِ تَفْنَى الأكوانُ ولا تَخْبُو نيرانُه .

أيتها الكلماتُ : مَتَى تَوكّلتِ على الحيّ الذي لا يموتُ وسمّيتِ باسم ربّ العزة و الملكوت وطويتِ المكتوبَ ودعوتِ بالقهرِ والجبروت؟

إن للكلام جَلالا وعليه مهابةً كعظمة السلطان يَرْكَبُ الراحلةَ يَخترق المفازاتِ ويَجِنُّ عليه الليلُ فلا يتزوّدُ ولا ينام حتى يكون له صوت به بُحَّةٌ تعتريها حَشْرَجَةٌ فَيَتَأبَّى ثم يتألّه ثمّ ترتجف شفتَاهُ مردّدا :

المدادُ عَصِيٌّ واليراعُ على الإباءِ وينبلج من ثغرها النورُ وتسأل مَنْ أتاها : كيف أنتَ قبل أن تراني . فيقولُ : كما كنتِ أكونْ، أسعارٌ ومُهورْ، أبتاعُ من الهَوَى وأبيعْ، صَفَقاتٌ بلا خُسرانْ ،وكلٌّ بائعٌ ويشتري، وربّاتُ الخدورْ. ومن الكلام ما سَحَرْ ، ومن السحر ألوانٌ تَصْدُقُ وألوانٌ تُدَارِي، ويجلو الشعرُ أستارَ النفوسْ ، حدّثيني يا ابنةَ النّورِ عن سِرّ البلاءْ، واكتُمي السّرَّ عن ماضٍ تَوَلّى ، واصْدَحِي بما هو آتْ. قالتْ : أأنساكَ يوما فلن أراكْ. قالْ: هكذا قالت حوّاءْ، وهكذا

روى الرّواةُ عنها ، كلّ البنـاتِ كأمّهنْ ، إلا التي بأنيسِ الروح قد آمنتْ .
قالتْ : بل سأتلو صفائحَ الذكرى وأقولْ: دَعْ مَنْ تَـلاَ وهاتِ ما هو آتْ ،
وسيَقـْدِمُ الضيفُ وتُرْصَدُ الآهــاتْ . قـال : فَلِـمَ اللفـظ علـى اللسـانِ
و الصدر قـد ضاق بما لا يطـاقْ. قالتْ : أحبّـكَ حُبَّيْــنْ ، حبَّ الهوى
وحبّا على قَـدَرِي ، لعبتُ له ولا أرتوي وقلتُ : سحابٌ عـابرٌ وغيثٌ لا
يـَنَــي . فـامتـدتْ السماءُ وتَـقاطَـرَ الصَّحْــوُ و انفجـر الغمامْ. قـالْ :
وشأنُـكِ مع الذين عـرفوكِ. قالت : كنتُ أصادفُ الـرجالَ ولا رجالْ ،
أتَـمَـلَّـى ويتسـاردونْ ، أحبُّ ألاّ يأتيَ الرجلُ فيأتونْ ، وكنتُ في نفسي
أتلهَّى وأقـولُ للـواحـد منهم : سأنسـاكَ مـا ذَكَـرْتَـني ، وسألقـاكَ مـا
نسيتَـني ، أفـَلاَ تَـفْعَلُ. قالْ : كذا كُـنَّ مَعي ، تشتدُّ الأبيّةُ النَّـفُورُ يوما
ثم إذا هي عِـهْــنٌ مَـنْـفُوشٌ ، يطيبُ فيه المقامُ و الـوزنُ خفيفٌ ، فَتَـزَّاورُ
النفسُ عنهـا ، ويطـول الجهد يُـدَافعهـا ، ويشتـدُّ العَـنَاءْ. و الــمَـلَلْ.
وروائح الجسدْ. حتـى لَـقيتُك . قـالت : لقيتَ الشعـرَ ومُستلينَ الكلامْ.
قال : وَفعلُ الفاعل يَـحْفِرُ الأجـرامَ خُـدُودًا فتسيلُ النفس سَـيَلاَنَ الهَوَى
كأنها الغيثُ الرَّذَاذْ. قالت : أفلا تخشى الفراقْ . قال: يوم لا تتلهفينْ ولا
تتـوجّعينْ ويـوم تخبـو في ديوانِــك نيرانُ كسرى . قـالتْ : قلبٌ وَجِلٌ
ومَعَاصِـرُ من دمي . قالْ : هو العشقُ وهو الرَّدَى . قالتْ : فأنـا الفانيـهْ .
قالْ : حملتُ لَـكِ حِـمْلاً وشَقَّـقْتُ عليكِ ثم رفعتُ الـمَرافِعَ وسافرتُ .

لَـــوْحٌ

أيها المتكلّمونْ. أيها السامعونْ. يا سُعَاةَ البريدْ. الكلماتُ لعبتي. وغوايتي. أعابثُ بها الأنثى. وأقول لها إني مُعابثٌ. فَتَقبل عبثي. ثم تُدْمِنُ عبثي. وَلاَ أنْفَكُّ أقول لها إني أرتّبُ الكلماتْ. وأسوّي مَفَاتِنَ اللفظْ. ولاشيءَ من وراء اللفظْ. ولا تفتأ تُمْعِنُ في قَبول اللفظْ. وحبِّ اللفظْ. حتى تَنْسَى صاحب اللفظْ. وإذا أنا بالكلماتْ. آتي إلى ذات الجمالْ. وأقولْ. وقعتُ في شراك لفظي. فصدّقتُ نفسي. فلست بعابثٍ. فتُقسِمُ هي أنيّ عابثٌ. وإذا اللغة بصاحبِها. وإذا اللفظ بقائله. واصفٌ وموصوفْ. كفاتنٍ ومفتونْ.

أقولُ مسائلا. هل أنا آثمٌ. فتقولُ. لا. وجلال اللفظ. أقول. لا أعرف الهوى. تقول. لذيذٌ كلامُكَ. جميلٌ خداعُكَ. فاتنٌ يُغري.

وتمضي الأيّامُ. وأطلبُ إجازتي. وأمْسكُ. فتبدأ الرحلةُ الأخرى. مَقاماتٌ. شَدْوٌ رخيمٌ. أستنفرُ ثُمَالَةً من كأس العزّة. فلا أفلحُ في دحر الكلماتْ. أصيبُ مَقاتلَ الإباء. فتترامى. أسخو بفُتَات اللفظ. مهترئا لَوَّثَتْهُ الشّفَاهُ. متراخيًا بَلَّلَهُ الرّضابُ. وأمضي.

ويوما . مَلَلْتُ الكلماتْ. فقصدتُ طبيبَ الذاكرَهْ. وطلبتُ الدواءَ للذاكرَهْ. فأعطاني وصفةً: فتّاكةً. وصفةً لمحو الذاكرَهْ. ارْتحتُ من الذاكرَهْ. غيرَ شيءٍ واحدٍ . ظلَّ في الذاكرَهْ. أنَّ طَبيبي قد عَرَفَ يومًا. بعد مُصَابِه في حُبّه . كيف تَمْحَى الذّاكرَهْ. ولم يَنْسَ. منذُ ذاكَ اليومِ. مَوْتَ الذّاكرَهْ.

أخذتُ قاموسي . وكلَّ معاجمي. وسافرتُ بها بعد العلاج. مستجمًّا. في غيابِ الذاكرَهْ. ويومًا. و الشتاءُ بثلجِه. في أوجِ عزّتِه. ونحن في غرفة. على الهضاب شاهقة. من جبال الأرض. وفي تلال السماءْ. ونوافذُ البلّورِ تَحْجُبُنَا. ودفءُ البيتِ نَصْنَعُهُ. بالثَّلجِ نَهْزَأ. بالأمطارِ. بالسُّحُبِ. نَرْنُو إلى الكونِ. نرنو إلى كَبِدِ السّماءْ. ونقول . في صمتٍ. لا شيءَ بعد اليومِ يَفْصلنا. إني. ولغتي. في المَنْأى. القَصِيّ. ولا عُتِيّ من الأنواءِ يَقتربُ.

أيتها الكلماتْ.

ليس فضيحةً حُبّي. ليسَ فضيحةً عشقي و شَبَقي. حين أخلو. حين أرْكَنُ. حينَ أغدو. وحين أروحْ. على لساني. وبين الشفاهْ. أنتِ وَحْدَكِ فضيحتي.

ردّت فقالت :

لا تُفْشِ سِرّي. سِرَّ حبّي. سرَّ لَهَفي. لا تمشِ على حافتي. لا

تَبُحْ بِمكَامنِي . بِجَسَدِي . أنتَ جِسْرِي ومَسَالكي .

لن أقولَ شيئا . لن أبوحَ . فلستُ بخائنٍ . هل تَأذَنينَ بهمسةٍ . أيا لغتي . الصَّيفَ ضَيَّعْتِ الجَسَدْ . الصّيفَ ضيّعتِ الجُسُورْ .

لو جئتُكِ كاملاً . ما أحْبَبْتِني . تَمّمِي التّمثالَ . ثم قولي . صَنيعتي . أنا الفنّانة . أتيتُ إلى اللوحةِ المُثْلَى . فَعَبَدْتُّهَا . ولمّا استقامتْ . بعد لأيٍ وشدّة . وحسبتُ أنّي الصّانعَهْ . وظننتُ أنيّ المالكَهْ . استوى الماءُ و التمثالَ وريشتي . ووجدتُّني . أسيرةَ فنّي . وإلهامي . بلغتُ به النُّهَى . بالشعرِ . روّضتُهُ . فيا عَجَبًا . كيف استقام اللفظُ . بِيَدِ النَّحّات . كَمَعَاولِ النَّقْشِ . كَمِبْضَعِ الجَرَّاحِ . وإذا أنا . في الفنّ هائمةٌ . أحببتُ فنّي . فَعَبَدتُّهُ . نَذرتُ له عُمْرِي . وأحللتُ له زمني . فلا فَقَدتُّكَ يازمني . ولا حُرِمْتُكَ أيا فنّي و يا أمَلِي .

صَدَى

أيها الشّعرُ. أيتها الحروفُ. أيا كلماتي. سيأتيكُنَّ يومًا. من يُنَظِّفُ القصيدَهْ. من يَصْقُلُ البَرْدِيَّ. من يطهّر سَنَمَ الأقصاب. فقد ضاع مني قلمي الذَّهَبِيُّ. ضاع منّي. أضعتُه. أتلفتُ نُسْخَهُ. لَوَّثْتُ مِدَادَهُ. فعدتُ إلى اللَّوحِ. يوم كنتُ كالأطفال. أخُطُّ وأمْحُو. ويَدِي مُلَطَّخَةٌ. بالكِلْسِ بالطّينِ بالأغبارِ. ومؤدّبي كالعرّاف يقول مستبشرًا. ستَنجح يا ولدِي. ستَنْجَحُ يا ولدِي.

رُحماكَ يا أبتي. عَلَّمْتَني. وظننتَ أنّي ناجحٌ. فأغدقتَ بالإكرامِ. وجودُكَ لا ينتهي. وأعطيْتَ مؤدّبي. كلَّ السّخاءِ. وجئتَ للعرّافِ. هازئا ومصدّقا. وعانقتَ قولاً قد بَدَا. كالنُّبُوّةِ صالحًا. أنَّ ابنَكَ ناجحٌ. فحمدًا. لربِّ العالمينَ. أنّك غائبٌ.

كنتُ كالطائرِ. يلازم الأقفاصَ. حتى أحَبَّهَا. ويوما. خرجتُ محلّقًا. وهجرتُ المساجنَ. وودّعتُ مساكني. وقلتُ. بلا عودة. فالأفقُ رحبٌ. وطلقٌ. ومشاعري في عُرسها. زاهيةٌ. بيضاءُ. بأجنحة خفّاقة. وركبتُ البحرَ. بحرَ الكلامِ. وأمسكتُ كالملاّح رايةَ مقودي.

وأطلقتُ إنذارا. كأصواتِ المَدافِع حَلَّ أمامَها. ضيفٌ أميرٌ. تُدوّي لَهُ. بالأفراحِ صارخةً. ومن لُجَّةِ الأبحارِ. تَسَلَّلَ مَرْكَبي. على جَنَباتِ الشعرِ. وحذوَ صخورِهِ. هَبَّتْ رياحٌ. واستشاط الموجُ. فالشّراع ممزّقٌ. والعوامد فُرِّطَتْ. و الرّواسي تَزلْزَلُ. على الضّفاف. تكسَّرَ زورقي. سأرثيكَ يازورقي. سأذْكُرُ ما حَييتُ سعادةً. قلتُ يوما للورَى. خذوا الدنيا. وهاتوا زورقي.

سأرثيكَ يا أبتي. سأرثي مؤدّبي. سأرثيكِ يا نفسُ. بلوعةٍ. حَرَّى. أنّي لم أصُنْ. شراعا سابحًا. رحماكَ يا أبتي. فطفلكَ راسبٌ. في البحرِ. وفي امتحان اللفظِ. طفلكَ راسبٌ. قد حاولَ مرةً. ألاّ يكونَ مكابرًا. تآنَسَ باللّفظِ. وقال لعلّني. أكونُ ملاّحًا على مياهِ النّهرِ. قبلَ المُحيطِ. محبًّا لا يَنِي. فأحمالُ أرضي. أناخت أظْهُرِي. رحماكَ يا أبتي. فطفلُكَ راسبٌ.

قد كساني اللفظُ يوما. لوحةً. فنّيّةً. من غابرِ الأحلامِ. جاءت رسومُها. بعطورِ صوتِ فاتنٍ. فسوّيتُها. ونقشتُ لها الألواحَ. من أندلُسٍ. ووَشحتُ لها الأليافَ. وأعْلَنْتُها. أسطورةً ذهبيّةً. وإذ أنا ساجدٌ. لها أنحني. نَزَّ منّي قلمي. فَسَرَى منه المدادُ. فَلَطَّخَ ثَوْبَها. وراح الفَنُّ. إلى الإلاهِ. منّي يشتكي. ثم أرسل لأبي. رسالةً مطويّةً. قد خَطَّ فيها : إنَّ ابْنَكَ راسبٌ.

أنـا الحرف الطليقُ. أنـا القصيـدة الحرَّى. أنـا اللفظ و السحـرُ. في موكب الشّعرِ. تألّـقَ مَولِـدي. ثم ضاعت مُهجتي. فَتَـاهَ نجمي.

تأوّهَ الشعـرُ يومـا . واشتكى. متـوجّعا بحنينِـه. يَذرف الـدمعَ. وللقصيد أنينُـهُ. كمهاجـرٍ. وكما الغريبِ. فـالأشجانُ داعيـةٌ. و النفس تهفو إلى الأوطانِ . أوّاهُ ياقَـدَري. إني أنا الشّعرُ الذي. قـد صارمتيَّمًـا. قـد بات معـذَّبًـا . بـلا إلفٍ ولا أملِ. من ذا الذي بعـد اليوم يقـولني . رحماك يـا قائلـي. فأنـا اليتيمُ. منـذ تـركتَني. وأنـا الكسيرُ. يـوم ضـاع القَـلَمُ.

رَجْـــعٌ

جرّبتُ دَهْـرًا في السّباحة حُظْوَتِـي. ونزلتُ قاعَ البحرِ. كمحترفٍ للصّيـدِ. كما الغـوّاصِ. يكـاشف الـــمُرجان وهـو أليفُـهُ. يـداعب الأصـدافَ وهي خصيمـةٌ. ضغطـتُ على الأنفـاسِ. ولُـذْتُ بـالأعماق مناديـا. من بحرٍ إلى نَـهَرٍ. في لُـجَجِ الألفـاظِ. وهي عنيدةٌ. وصِحتُ في داخلي. هذا هـو النهرُ المحيطُ. وفيما أنا بين يأسٍ ويَـقْظَةٍ. إذا بالفَيضِ. فيض السَّماءْ. يجودُ ويسخـو. تهاطلت الأصـدافُ. وجـاءت محارةٌ. من باطن الألفـاظ. كلؤلـؤةِ الياقـوت. لونُـها لا يـوصَفُ. ألماسةٌ في الماءِ. كخـاتَمِ الشّمسِ. من سـالف الأعماقِ. يَـبْـزُغُ. نـورُهـا. كـالكـوكب السّيّار. يعرفها الغوّاصُ. فينسَى ألَـمًـا. وتنطلق الأنفاسُ. وهو بمائه. وفاز بـالسّبق. فاز الذي قـد طوى عُمُـرًا. كاليائسِ. صـامتا لا يكشف. وقال. هذا هو الوجد. هذا هو اللفظُ. فلن أنساك يا قلمي. وخَطَّ لفظا. وصـاغ حرفـا. وراح يَـنْظم المنثـورَ. ومن أعماق بحرٍ خـالدٍ. يَستخـرج الأوزانَ. وأصبحَ صـائغـا. يسـوّي القلائدَ. ليَـزينَ بها. جيـدًا بحسنـه ظالـمًـا. مَفـاتنُهُ الوَجَـنَاتُ. إذا رَمَتْ باللّحظ. أصـابت قَيْصَـرًا. ولَمّا

استوَى الماءُ. وجاء مَـحَارُهُ. قال قائلهم. درسُ السّباحةِ. أبدا لا ينتهي. عليكَ بالغوصِ. ألْـفًا وألفًـا. فلسـتَ بماهرٍ. ولستَ بصائغٍ. لا يَـهْـزِمُ المرءَ إلاّ لسانُـهُ. ونـادى المنادي. أيا أيّها الطفل. في الدهـر. وفي النهر. ومن جديد. إنك راسبٌ.

رحماك يـا أبتي. أوصيْتَني. وأُنْـسيتُ وصيّتَكْ. فقد قلـتَ يومـا. الحبُّ كالشعرِ. و الشعر من فتنة الألفاظ. و الكلماتِ. إذا تعرَّى سرُّها. زجاجةٌ تنكسرُ. فالآنَ عرفتُهـا. والآنَ فاتَ أوانُـها. فَسَأُفْشِي سِرَّهَا. وأقولُـــها. لكلِّ طفلٍ بـاسمٍ. لكلِّ فتـــى نـاظمٍ. لكلِّ كهلٍ ناثـــرٍ. سأقولُـها. وأقولُ بعدَها. رحماك يا أبتي. إنَّ ابنك راسبٌ.

وفي ليلـةٍ. من ليالي القَـدَرِ. قد دعـا لي ملَـكٌ بدعـوةِ الخيرِ. أنّى جِئْـتَهَا. فـاستجابَ الـقَـدَرُ. فألفَ حمدٍ يـومها. بَـلَغْتُ ذُرَى المجـدِ قولاً وفتنةً. وأقسمتُ للشعـرِ. لن أنساك يا قَسَمي. وجئتُ القصيدةَ. سـاعيا ومدبِـرًا. وكـان لي في الإيقاعِ مَـوجـدةٌ. واجتَـزتُ في ليلٍ. وبي أملٌ. اختبـارَ الوزنِ. وتـلافيفَ الـمُنَى. وأذَاعَ الشعـرُ عنّي سِرَّهُ. قـد خَيَّبَ الظَّنَّ. فليس بناجحٍ. فيا أيها الشعر الرحيمُ. مغفرةً. وسماحةً. فاقبَلْ من فَتًى تَـائـه. بَـوْحًا جديدًا. يقول. ويَـهمسُ. سامحوني. فلستُ بشاعرٍ. ثم هَاكُمْ قولـةً. سرًّا دفينًا. طالما يتكـرّر. سأظلُّ ما حييتُ على الـوفاءْ. للصّـورة المثلى. لألف ذكر. سأظلُّ بعـد اليومِ. كَعَبْـدٍ. عاشقٍ للضّـادِ.

معشوقُهُ الحرفُ . وهو طائعُهُ .

وأقبلتُ على الدرس منتبهًا . طالبا حذقَ السّباحة . مجتهدًا . ومعاودًا . وبي في الفَلاَحِ أُمْنِيَّةٌ . أنْ أبْعَثَ . إلى عالم الأرواحِ . برقيَّةً . أقول فيها . رحماكَ يا أبتي . فطفلكَ ناجحٌ . ونزلتُ قاعَ النهرِ مجدَّدًا . أفتّشُ في المحارِ . كاشفًا سرَّ اللآلي . فإذا أنا . كَسَعيدِ الحظ أُمسكها . جوهرةً . ألْماسَةً . نُوريَّةً . أداعبُ الأصدافَ من حولها . وأومِيءُ لها باللّحظ . كفارسٍ في الغوصِ ليس يهابُه . إذا بزلزالٍ . يَهُدُّ الكونَ . كونَ لآلئي . فَقُنْبُلَةٌ قد انفجرتْ . من بقايا الحرب . مزّقَتْ أوصالَ طفلٍ حالمٍ . بَدَّدَتْ أشلاءَهُ . وفرقَعَتْ في الشعرِ شَظِيَّةً . فَتاهَ الوزنُ . وضاع القلمُ .

هل تُبعَثُ الأرواح بعدَ ضَيَاعِهَا . هل تُولَدُ الألفاظُ بعد مَمَاتِهَا . هل تَحْملُ الأرحامُ بعد سُباتها . كيف السّبيل إلى عَصًا سحريَّة . تحوّلُ الألفاظَ زَهْرًا . تغيّرُ الألحانَ مِنْ شُؤْمٍ ومِن نَحَسٍ . فيأتي طالعُ اليُمْنِ . وتأتي البركاتُ . والعَرّافُ . والتّلاواتُ . وعطرُ المكرُمات . وتهاليلُ الليلِ . وتسابيحُ الضُّحَى . وآيَةُ الكُرسيّ . وسدرةُ المنتهى . و الحزبُ اللّطيفُ . والأختامُ أدعيَةٌ . والنَّفَّاثاتُ في العُقَدِ . راحَتْ تَضيعُ . وزال الإفكُ . وانبلجَتْ . أشعّةُ النّورِ . وعندصياحِ الديكِ . عند السَّحَرْ . صاح مؤذّني . هذا هو الفجرُ . وبعدَ الفجرِ . صبحٌ جديدْ .

نَسْخٌ

قلتُ مُفَاتِحًا. هل تأذنينَ لي. أيا لغتي. أن آخُذَ منكِ إجازةً. وأن أبْحِرَ في محيط الوراثة. حيث الهندسةُ الجديدَهْ. حتى أتقنَ حديثَ الاستنساخِ. أنتقي منكِ الحَيَاملَ. والجِنَات. وأثبّتُ الخلايا في أنابيبِ المَخَابِرِ فسيأتي عليكِ يومُ النّسيانْ. يومُ افْتقادِ الذاكرهْ. وعندها سأبعثُ المَلاقحَ. من سُباتها. وسَأنْفُخُ فيها حرارةً. بعدَ الجَماد. سأستنسخُ من كلماتكِ الكلماتْ. وسأولّدُ من صُوَرِكِ الصُّوَرْ. فاني أخافُ عليكِ. بتُّ أنا أخافُ عليكِ. من نفسكِ. أنا أخاف عليكِ. على نفسكِ أنَا وأنتِ تخاف عليكِ.

قالت.

هناكَ من بعيدْ. على فراش الذّكرياتْ. بين فُحوصٍ وكُشوفْ. واستوى البقاءْ. ومقاديرُ الرحيلْ. مسكتُ بنفسي. فوجدتُ العزمَ حَديدًا. فحدتُ نواطري. وحَدّقتَ في الوجودِ فرأيتُ مسافات تقاربَتْ. فاختَزلْتُهَا. واعتَصرتُ رحيقَها. جمرةٌ بين نسارين. يومَ نطقتُ. يوم أحببتُ لغتي. يوم خِلْتُ أن الحبَّ قد وُئِدَ. ليلةً. بُعثَ

الوليدُ جديدا .

أجَبْتُ . ثم طَلبتُ قلما . وصحيفةً . ولم يمنعوني . فانثال لفظٌ . دَمًا قَرَاحًا . كأنه الأسى . تتقاطر مقلتي . بدأتُ . وماكنت أعلمُ أين سأنتهي .

طلبتُ الرحيلَ .

فحضرتني .

طلبتُ الشهادةَ .

فحضرتني .

سألتُ نفسي . اليومَ أحببتُ الحياةَ . أحببتُ سوالفَ الأزمان .

همستُ بَاسمًا .

يَا لُغَتي . يا آسرَهْ . مُستبدّ طيفُك . في الرّكنِ . في البيتِ . طيفُك . على الورق وبين السطورِ وفي المحافظ . طيفُك . في السوقِ . وعلى المآذن . في الرُّبى . وعلى الشوطىء . يلاحقني . طيفُك . أمْسكيه وروّضي عنادَهُ . فالطّيفُ طيفُك . إذا غضبتُ . فهو يبتسمُ . طيفُك . وإذا انشرحتُ . تقطّبَتْ أهدابُهُ . طيفُك . أمسكيه ساعةً . أو بعضَ وقت . إني أسوّي أغنيّةً . وأهديك لحنًا . شاديًا . كلماتُهُ . الطّيفُ طيفُك .

قالت .

هل جلستَ يوما على الضّفاف بعدَ الغُروب و الأضواءُ تتسلّلُ بين حُجُبِ الظلامِ تخترقِ الضّبابَ لتستقرَّعلى صفائح الماء وهي هادئةٌ لا

يـداعبُهـا إلا هفيفُ النسيمِ تـرتعش لـه ارتعـاشـةَ قلـبِ الحبيبِ ينـادي بِخَـفَـقَانـه أناملَ الطّيفِ القَصـيّ أنِ ارْسُـمْ بريشةِ الفنّ لوحـةَ الغَزَلِ على صدري فيهـا السمَراكبُ تختـالُ على الماء راقصـةً بِشِـراعِهَا الأبيضِ الفتّان كـأنـه ينادي شاهقاتِ الـمَبَانِي :

بوركتِ يا لُـغَتِي .

هَاءُ السَّكْت

هَـلْ أتَـاكَ حديثُ الـمَـرْأة
تُـقَـدّمُ الجَسَدَ قُربانًا إلى الحبّ
يَـصْطَـلـي بِـنَـارِ النَّـدَمِ.

أيتها اللّغةُ. تَـمَنَّعي. أهلاً بك. تمرَّدي. اغْرِفـي من بحور الزَّهْو. أهلاً بك. امْكُري. أمْعِنـي كَيْدًا. غيظيني وراوغي. اطْعَني الظهرَ بِـنِبَال الشّعْـر. فسهامُ اللفظ حميمَـةٌ. وتفنَّـني. اعزفي على نبض القلـوب. ثم كُوني. فـاتنةً. خـائنةً. فأهـلاً بك. شيئًا واحـدًا. لا تفعليه. فَللـدَّلالَة حُرمـةٌ. وللمـدارك سلطـةٌ. للعقل كما للحبّ. جـلالٌ وَمَهـابـةٌ. لا تتناقضي. لا تتردّدي. لا تجُاملي من صانعوك. قد شَوَّهُوك. حينَ صِرْت كَدُمْيَـة. تُسَوَّى بك الصَّفَقَاتُ. كإحـدَى اللَّهَجَات. تَدحرجْت من سَماء النُّبْل. حيثُ وَضعتُك. تَـمَرَّغْت في الأوحـال في الطّين المُبَلَّل. فَتَـدَنَّسَتْ. أزهارُ تَاجـك. لا تَـتَـنَاقَضي. قَسَماً بك. يومَ كنت فَصيحَةً. ناصِعةَ البياضِ. محجوبَةً. قَسَمًـا بـالشّعْر. بآيات النُّهَى. بالكلمات. لو

جئت القَطيعَـةَ مَـا نَقمْتُ عليك. خيـانـةُ المعنَى كَهجْـرَانِ حُبٍّ. قـدرةٌ وشجاعةٌ. وتَنـاقُضُ الأهواءِ مَذَلّةٌ ومَهانَـةٌ. لا تتنـاقضي. بِرَبِّ الشّعرِ. لا تتملّقي. أسماءُ الأضـــداد لَعينَـةٌ. و السُّهَى. حَقْلٌ مِـنَ الألْغـامِ. لا تتفكّكي. لا تتمزّقي. فلا أهْلاً قَـدمْتِ. لا تتناقضي. ولا سهلا حَلَلْتِ. لا تَـتَوَرَّطِي. جَسَدُكِ المسكينُ. بينَ يـومٍ و ليلـة. وهبتِـهِ في الدُّجَـى. هديَّـةً مفضوحـةً. لِلَّيْـلِ السّعيـد. وعنـدَ الضُّحَى. وَهَبْتِ الخليلَ فُتَاتَـهُ. منهوكَ القُوَى. فَاترَ الأشلاء. قد خَبَتْ أوْهَاجُهُ. قَدَّمْتِـهِ. كَبْشَ الْـفِدَاء. لـوَجْـد وَاهـمٍ. كَـقصيدة الزَّيف. في بَـدْءِ اللّقَاءْ. كَمَـادحِ السّلطانِ. يُمَجّدُ الفُصْحَـى. عَـلَى مِنْبَـرِ الأشعارِ. وهو مُرَاوِغٌ. دَيْدَنُـهُ التّلْهِيجُ. بـلا خَجَـلٍ. يُسكّـنُ الحَركاتِ. صَفِيقَ الحَيَـاءْ. كَـغَضْبَـةِ الأقدارِ. على فَـلْـذَةِ الأكبادِ.

أيتها اللّغـةُ.

أيتها الفُصْـحَـى.

لاَ تَـنْسَـيْ وَصِيَّتِي.

تَـجُوعُ الحُـرَّةُ ولا تأكُـلُ بِثَـدْيَـيْهَـا.

تَـفْنَى الأبِـيَّـةُ وَلاَ تُضَحّـي بِـحُـبّـهَا.

قـافـيـــةٌ

هَـا أنّـي
وفي البَـدء ما رُمْـتُ إلا ترويضَ لسانـي
قد رَوّضتُ قلبـي وجنـانـي
ها أنـا محـبّ عـاشـقٌ
ها أنا مفتـونٌ بضَـادي ولسـاني
إنيّ أشهـد أنّى الأسيـرُ
وأسـري كلماتـي
بحبّ
قـد دخلتُ إليـكِ
وبشـرف
أُوَدّعُـكَ
فلـنَ أعُـودَ
أيتها القـافيـةُ، أيتها القصيدةُ، قَسَمًـا بالشّعـرِ :
لأنْت
طَـالَـقٌ
طَـالَـقٌ
طَـالَـقٌ .

للمـــؤلف

الأسلوبية و الأسلوب :

ـ الدار العربية للكتاب ، تونس ط 1 : 1977، ط 2 : 1982 ، ط 3 : 1988

ـ دار الصباح ، القاهرة ـ الكويت ، ط 4 : 1993

التفكير اللساني في الحضارة العربية :

ـ الدار العربية للكتاب ، تونس ، ط 1 : 1981 ، ط 2 : 1986

قراءات مع الشابي و المتنبي والجاحظ وابن خلدون

ـ الشركة التونسية للتوزيع ، ط 1 : 1981، ط 2 : 1984 ، ط 3 : 1989

ـ دار الصباح ، القاهرة ـ الكويت ، ط 4 : 1993 .

النقـــد و الحـــداثـــة :

ـ دار الطليعة ، بيروت ، ط 1 : 1983

ـ دار أميـــة ، تـونس ، ط 2 : 1989

قاموس اللسانيات (عربي فرنسي ـ فرنسي عربي) مع مقدمة في علم المصطلح

ـ الـدار العربيـة للكتـاب ، تـونس ، 1984

اللســانيــات من خـــلال النصـــوص

ـ الدار التونسية للنشر ، ط 1 : 1984 ، ط 2 : 1986

الشرط في القرآن على نهج اللسانيات الوصفية

ـ الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1985

(بمعية د. محمد الهادي الطرابلسي)

اللسانيات وأسسها المعرفية

ـ الدار التونسية للنشر ، 1986

النظرية اللسانية والشعرية في التراث العربي من خلال النصوص

ـ الدار التونسية للنشر ، 1988

(بمعية د. عبد القادر المهيري ود. حمادي صمود)

مراجع اللسانيات

ـ الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1989

مراجع النقد الحديث

ـ الدار العربية للكتاب ، تونس ، 1989

قضية البنيوية : دراسة ونماذج

ـ ط 1 : دار أمية ، تونس ، 1991

ـ ط 2 : دار الجنوب ، تونس ، 1995

قضايا في العلم اللغوي

ـ الدار التونسية للنشر ، 1994

مساءلات في الأدب واللغة

ـ مؤسسة اليمامة ، الرياض ، 1994

المصطلح النقدي

ـ مؤسسات بنعبد الله ، تونس ، 1994

في آليات النقد الأدبي

ـ دار الجنوب ، تونس ، 1994

أبو القاسم الشابي في ميزان النقد الحديث

ـ مؤسسات بنعبد الله ، تونس ، 1996

مباحث تاسيسية في اللسانيات

ـ مؤسسات بنعبد الله ، تونس ، 1997

تمّ طبع هذا الكتاب
بمطبعة كوتيب تونس الشرقية
مارس 1998

أيتها اللغة هل تأذنينَ بإفشاء سرّ من أسرارك :

يومًا ركّبْتُ بك قولا فانساق بيَ الطّيشُ بالألفاظ فلم أدْرِ ما كنتُ أعْنيه، وأمعنتُ . فتزيّنَتْ صورةٌ ولم أفهم لها معنًى . رَدّدتُ القول فاستَطَبْتُه . وعاودتُ فانثال ليَ فيض من الدلالات . وأشَعْتُ . فَقَبِلُوا واستراحوا . ثم سلكوا في النّشوة كلَّ مسلك . فأغراني عَبَثُ الوليد . فَظَلّتْ معي رمنا . وأردتُ توبةً واستغفرتُ لديك وَهَمَمْتُ أن أعلن الذّنب وأن أصّعَّدَ على منبر الاعتراف أُطَهّرُ النفس من أعلاقها وأغسل بالبوح إثما ظلمتُك به . وأنا بين عزم وانثناء سمعتُكِ وسمعتُ مَنْ حولك تُهَاتِفِينَ ويُهاتفون :

ليس من عبثٍ ما صنعتَ ، إنما العبث ما ستصنع ، فلا تكابرْ . فلقد نَطَقَتْ على لسانكَ اللغةُ أرسلتْ إليكَ واحدا من جنودها وهم نَفَرٌ من الجنّ قالوا آمنّا فما هم بملحدين ، فلا تستعذْ بالله من طيفٍ ألَمَّ بكَ .

ومن يومها تزيّنتْ لي فتنةُ الكَلِمَاتِ .

9 789973 707543

ر د م ك 9973707543

السعر : 3.900 د.